الباب الرابع:
في الاستدلال بأحوال الحيوانات على قدرة الصانع الحكيم ﷻ

وفيه فصول:

الفصل الأول:
في الاستدلال الكلي بأحوال الحيوانات

وقبل الخوض في المقصود لا بد من إشارة إلى تقسيم الحيوانات فنقول: الحيوانات التي تطير في الهواء قسمان أحدهما: الطيور، والثاني: الحشرات، والفرق بين القسمين أن كل حيوان صغير الجثة ليس له عظم ولا ريش فهو من الحشرات وما كان له عظم وريش فهو من الطيور، إذا عرفت هذا فنقول أقسام الحيوانات الخمسة: قسمان منها من حيوانات الهواء، والقسم الثالث حيوانات الماء، والقسم الرابع حيوانات وجه الأرض كالبهائم والسباع، والقسم الخامس حيوانات تحت الأرض وهي الحشرات كالحيات والخنافس والديدان وأشباهها. فاعلم أن حيوانات الماء أعظم الحيوانات وهي أيضاً أصغرها والمراد منه أنه يوجد في حيوانات الماء ما يكون أصغر من جميع الحيوانات، وأمّا حيوانات وجه الأرض فهي دون حيوانات الماء في العظم وبعد حيوانات جوّ الأرض وآخر المراتب في الصغر الحيوانات المتولدة في داخل الأرض فهذا هو ضبط الأقسام، ثم نقول اعلم أن الله تعالى استدل بخلقة الحيوانات على وجود الصانع الحكيم تارة مجملاً وتارة مفصلاً، أما المفصل فسيأتي شرحه في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

وأما المجمل فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ

ٱلرَّحِيمُ﴾ ثم ذكر عقيبه ما يدل على وجود الصانع الحكيم ثمانية أنواع من الدلائل فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهما دليلان، ثم قال: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو الدليل الثالث، ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ وهو الدليل الرابع، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو الدليل الخامس، ثم قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وهو الدليل السادس ثم قال:

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ وهو الدليل السابع، ثم قال: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو الدليل الثامن.

ثم لما ذكر هذه الدلائل الثمانية مدح المتفكرين والمتأملين فقال: ﴿لَّءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والمقصود أنه ﷻ احتج بخلقه الحيوانات المختلفة على وجود الصانع الحكيم وهو قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ولما كان الأمر كذلك وجب علينا أن نبحث عن وجود دلالة هذا الدليل.

فنقول: الاختلاف في أبدان الحيوانات وفي صفاتها ظاهر ونحن نشير إلى بعضها ثم نستدل بها على وجود الصانع الحكيم.

فاعلم أن الاختلاف في الحيوانات حاصل من وجوه لا يحيط بها علم البشر، إلا أننا نشير إلى بعض تلك الوجوه:

فالأول: الاختلاف الحاصل في صورها وأشكالها:

فأحدها: الاختلاف الحاصل في الجلدة الظاهرة وذلك لأن بعضها كالسلحفاة يحيط به صدف وبعضها كالسمك على جلده فلوس وبعضها على جلده شوك كالقنفذ وبعضها على ظاهرها ريش وجناح كالطير وبعضها على ظاهره شعور ووبر وصوف كالبهائم والأنعام والسباع وبعضها يكون عارياً عن كل ذلك كالإنسان.

وثانيها: الاختلاف في الألوان والأشكال فمنها ما يكون ملوناً بلون واحد وهو الإنسان ومنها ما يكون ملوناً بلونين كالفرس الأبلق ومنها ما يكون ملوناً بألوان كثيرة عجيبة حسنة كالطاووس.

وثالثها: الاختلاف في الأصوات فمنه ما يكون مصوتاً ومنه ما لا صوت له

والمصوت ما هو طيب الصوت كالعندليب ومنه ما هو قبيح الصوت كالحمار قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

ورابعها: قد يكون صغير الجثة عظيم العين كالبوم وقد يكون كبير الجثة صغير العين كالعقاب، وقد يكون عينه سريع التغير من الضوء كالخفاش وقد لا يكون كذلك كالخطّاف.

وخامسها: منها ما يمشي على بطنه ومنها ما له رجل أما الرجلان فكالطير والآدمي وأما الأربع كالبهائم والسباع وأما أرجل كثيرة ستة أو ثمانية، وكل طائر ذو جناح فإنه يمشي برجليه، ومن جملة ذلك ما يكون المشي عليه صعباً كالخطاف الكبير الأسود والخفاش وأما الذي يكون جناحه جلداً قد يكون عديم الرجل كضرب من الحيّات بالجثة تطير (كذا).

وسادسها: ثدي الفيل والإنسان تكون عند الصدر وثدي البقر والغنم عند السرة.

وسابعها: إذن الفيل صالح للذبّ مع كونه آلة للسمع، وأنفه آلة للقبض مع كونه آلة للشم فهذه اختلاف أحوال الحيوانات في الخلقة الظاهرة.

النوع الثاني: اختلاف أحوالها في المسكن والمأوى:

فمنها مائية ومنها أرضية ومنها ما يكون مائياً وأرضياً معاً، أما الحيوانات المائية فمنها ما يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائياً وله بدل النفس النسيمي تنشيق مائي ينقل الماء إلى باطنه ثم يرده ولا يعيش إذا فارقه والسمك كله كذلك، ومنها ما يكون مكانه وغذاؤه مائياً ولا يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف ولا يظهر ألبتة للهواء ولا يستدخل الماء إلى باطنها وأيضاً الحيوانات المائية بعضها ما للأنهار الجارية وبعضها مائية البطائح مثل الضفادع وبعضها مائية البحار، وأيضاً الحيوان المتنقل في الماء منه ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على أجنحته كالسمك ومنها ما يعتمد في السباحة على أرجله كالضفدع ومنها ما يمشي في قعر الماء كالسرطان ومنها ما يزحف مثل ضرب من السمك لا جناح له أو كالدود. وأما الحيوانات البرية فمنها ما يتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم، ومنه ما لا يتنفس على هذا الوجه بل من مسامه مثل الزنبور والنحل، وأيضاً الحيوانات الأرضية منها ما له مأوىً معلوم ومنها ما مأواه كيف

اتفق إلا أن تلد فتقيم للحضانة. واللواتي لها مأوىً معلوم فبعضها مأواه شق وبعضها مأواه حفرة وبعضها مأواه قلة رابية وبعضها مأواه وجه الأرض وأيضاً الطير مختلف فبعضها يتعاشق معاً كالكركي وبعضها يختار التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التي تنازع على المأكول ينفرد لأجل احتياجها إلى الاحتيال في الصيد ومنافستها، ومنها ما يتعاشق ردحاً وتكونان معاً كالقطا ومنها ما يجتمع تارة وينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية وتكون مستأنسة والإنسان من بين الحيوانات هو الذي لا يمكنه أن يعيش وحده فإن أسباب حياته لا يتم إلا بالمشاركة المدنية، والنحل والنمل وبعض الغرابين شارك الإنسان في ذلك لكن النحل والكراكي يطيع رئيساً واحداً والنمل له اجتماع لكن لا رئيس له، وأما الحيوان الذي يكون تارة مائياً وأخرى يكون أرضياً فيقال أنه حيوان يكون في البحر ويعيش فيها ثم إنه يبرد في البر ويعود إلى البحر ويبقى فيه.

النوع الثالث: اختلاف أحوالها بحسب الأخلاق:

اعلم أن الحيوان منه ما هو إنسي بالطبع كالإنسان ومنه ما هو إنسي بالمولد كالهرة والفرس ومنه ما هو إنسي بالقهر كالفهد ومنه ما لا يأنس كالنمر، والذي يستأنس بالقهر منه ما يحصل استئناسه سريعاً ثم يبقى مستأنساً كالفيل ومنه ما يكون ذلك بطيئاً كالأسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف إنسي وصنف وحشي، وأيضاً بعضها يكون ساكن الطبع قليل الغضب كالبقر وبعضها ردية الحركات كالحية وبعضها شجاعاً كريم النفس كبير الطبع كالأسد «وبعضها» قوي وحشي محتال كالذئب ومنها مكّار رديء الحركات كالثعلب ومنها غضوب شديد الغضب سفيه إلا أنه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الذكاء كالفيل والقرد والفرس وبعضها حسود تباهى بجماله كالطاوس وبعضها شديد الحيط كالجمل والحمار. وأيضاً أحوالها في التناسل مختلفة وبعضها تلد أشباه دود كالنحل والعنكبوت والجراد ثم إن تلك الدود تستكمل أعضاؤها بعد ذلك ويقال أنه إذا ظهرت السخونة وقت الربيع طلب الجراد أرضاً طيبة التربة رخوة الجسم وطرحت في الأرض بيضها ثم طارت بعد ذلك وعاشت أياماً وماتت وأكلها الطيور، وإذا دار الحول وجاء الربيع مرة أخرى وطاب الهواء خرجت من تلك البيضة المدفونة في تلك الأرض أمثال الديدان الصغار ودبت على وجه الأرض وأكلت العشب والكلأ وأخرجت لها أجنحة وطارت وأكلت من ورق الشجرة وسمنت ثم باضت كما في العالم الأول، وهذه عادتها بتقدير العزيز العليم. وأما دود القز التي

يكون على رؤوس الأشجار في الجبال فإنها إذا شبعت من الرعي أيام الربيع وسمنت أخذت تنسج على نفسها من لعابها شبه النعش والكفن ثم تنام فيها أياماً معلومة وإذا انتهت طرحت بيضاً في داخل الكفن الذي نسجت على نفسها ثم ينفثها ويخرج منها وسدّت ذلك الثقب ثم يخرج لها أجنحة فتطير فيأكلها الطير أو ماتت من الحر والبرد والريح والمطر وبقي ذلك البيض في ذلك الأكفان محرزة أيام الصيف والخريف والشتاء إلى أن يحول الحول ويجيء أيام الربيع فتنشأ من ذلك البيض ديدان صغار تخرج من تلك الثقب وتدبّ على ورق الأشجار أياماً معلومة، فإذا شبعت وقويت أخذت تنسج على نفسها من لعابها كما في العام الأول وهذا دأبها وعادتها بتقدير الحكيم العليم، فسبحان من هدى كل واحد من هذه الحيوانات إلى هذه الأعمال.

واعلم أن الاستدلال بأحوال هذه الحيوانات من وجهين:

الأول: أنه سبحانه خلق هذه الحيوانات مختلفة الصورة متقنة الأشكال وبعضها كبيرة كثيرة الآلات فلما أعطى الفيل الجثة العظيمة القوية الشديدة حتى يدفع عن نفسه المكاره بأنيابها الطوال الصلاب ويتناول بخرطومه الطويل أنواع المنافع، وكذلك أعطى البقة على صغر جثتها جناحين لطيفين حتى قدرت بهما على سرعة الطيران وتناول الغذاء بخرطومه فصار الصغير والكبير في هذه المراتب متساوية في جذب المنافع والاحتراز عن المضار متشاكلة. بل ها هنا لطيفة عجيبة وهي أنك ترى ما كان منها أصغر جثة وأقل حيلة كان أكثر راحة وأطيب عيشاً وأقل اضطراباً في جر المنافع ودفع المضار مما هو أعظم جثة وأقوى قوة، بيانه منها أن ما كان قوي القوة كامل البنية يدفع عن نفسه المكاره بالقهر والغلبة كالأسد والفيل ومنها ما يدفع عن نفسه المكاره بالفرار وسرعة العدو كالأرانب والغزلان، ومنها ما يدفع المكاره بالطيران في الجو كالطيور ومنها بالغوص في الماء ومنها بالاختفاء في الثقب والجحرة كالفأر والنمل كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وأما طلبها للمنافع فتارة بقوة البصر وتارة بشدة الطيران كالنسر والعقاب وتارة بقوة الشم كالنمل والجعل وتارة بقوة السمع كالنسر. وأما هذه الحيوانات الصغار الجثة الضعاف البنية التي ليس لها شيء من الآلات والأدوات ولا شيء من الإدراكات والإحساسات كالديدان الصغار وأشباهها فإنها خلقت في أماكن كثيفة ومواضع حريزة.

وأما في أجواف الحيوانات في جميع أجزاء أبدانها قوى حادثة يمتص الرطوبات المغذية لأبدانها ولم يحوجها إلى الطلب ولا إلى الهرب فسبحان الخالق العظيم الذي أعطى كل شيء مصلحته؟! وروي أن الليلة التي أوحى فيها إلى موسى عليه السلام كان قلب موسى متعلقاً بأحوال زوجته فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك على تلك الحجرة فضرب فخرج منها حجر آخر ثم ضرب العصا عليه فخرج منه حجر آخر فضرب العصا عليه فخرج منه دودة في غاية الصغر وفي فمها مقدار ذرة من ورق الشجر فرفع الله الحجاب عن موسى فكان يقول: (سبحان من يراني ويسمع كلامي ويذكرني ولا ينساني في بعد مكاني).

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الحيوانات أن نقول هذه الحيوانات كثيرة جداً ويقال: أن حيوانات البحر ستمائةٌ نوع وحيوانات البرّ خمسمائة نوع، واحد منها هو البشر وإذا كان كذلك فكيف يمكن الاطلاع على أحوالها وعجائب صفاتها إلا أن وجه الاستدلال بها على الصانع الحكيم ظاهر وذلك لأنه لو كان السبب لوجودها هو تركيب الطبائع وتأثير الأفلاك والكواكب فذلك بالنسبة إلى الكل على السوية بل صريح العقل يشهد بأن اختصاص كل واحد منها بماله من الأعضاء والقوى والصفات والأشكال لا بدّ وأن يكون لتدبيرها مدبر قادر حكيم يخلق الأشياء بقدرته وتدبرها بحكمته.

واعلم أنه تعالى قد نبّه في القرآن على عجز البشر عن معرفة أحوال الحيوانات في آيات إحداها: أنه تعالى لما شرح أحوال الحيوانات في سورة النحل في قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ قال بعد ذلك ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمعنى أنا شرحنا لكم أحوال بعض الحيوانات فأما شرح أحوال الكل فذاك مما لا يليق بعقولكم بل يجب تفويض معرفتها إلى خالقها. فهذا ختم الكلام في شرح أحوال الحيوانات بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وثانيها قال في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ ثم قال بعده: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ وفيه فائدتان:

الأولى: أنه مع حادثيته دال على تمام معرفة المبدأ والمعاد فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ تنبيه على أن الكل منه لأن كل ما سواه ممكن ومحدث

والمحدث لا يوجد إلا عند الانتهاء إلى قدرة الله الواجب وجوده الأزلي ثم إن حدوث هذه الحيوانات دال على قدرة الصانع ووقوع حدوثها على جهة الإحكام والإتقان دال على عظم الصانع وحكمته فكان حدوث هذه الحيوانات من أدل الدلائل على كونه ﷻ ملكاً بالحق مالكاً بالصدق فلهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ دال على أن المعاد حق وإن البعث والنشر والحشر حق حتى يظهر في ذلك اليوم نتائج أفعال هذا اليوم.

الثانية: أنه تعالى لما شرح أحوال بعض هذه الحيوانات على سبيل التفصيل وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ ثم ذكر بعد هذا التفصيل هذا الكلام المجمل وهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كان ذكر هذا بعد ذلك التفصيل تنبيهاً على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى الوقوف على تمام تلك التفاصيل.

ثالثها: قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك لأنه تعالى ذكر انقسام الحيوانات إلى هذه الأقسام وهذا كلام تفصيلي. ثم إنه تعالى أردفه الكلام المجمل وهو قوله يخلق الله ما يشاء والمقصود التنبيه أنه لا سبيل للبشر إلى معرفة تمام هذه التفاصيل وقد ذكرنا في الفصول المقدمات أنه في شرح أحوال الأفلاك جرى على هذا المنهاج فقال في آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يطلبون معرفة الحكمة في كل واحد منها، ثم عدل إلى التعظيم الإجمالي وهو قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ وقال في الأعراف: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ثم عدل منه إلى التعظيم المجمل فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والمقصود من كل هذه الآيات التنبيه على أنه ليس للعقول البشرية اطلاع على تمام الحكمة الإلٰهية في تدبير العالم العلوي والسفلي بل الواجب تفويض أسرارها إلى علمه المحيط بالغيوب المقدس عن النقصانات والعيوب كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وها هنا سؤالان الأول: قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾. **فظاهر هذه الآية يوجب مذهب التناسخ من وجوه:**

الأول: قوله تعالى ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يقتضي حصول المماثلة بينهما في الروح والعقل والإدراك والتكليف.

الثاني: أنه ثبت بهذه الآية أن كل نوع من أنواع الحيوانات أمة وإذا ثبت هذا وجب أن يحصل في كل واحد منها رسول ونذير: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ والإنذار لا يتحقق إلا في حق العقلاء المكلفين وهذا يقتضي كون هذه الحيوانات عارفة بربها مكلفة بالطاعات.

الثالث: ما روي عن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الرب والسعي في طلب الرزق ومعرفة الذكر والأنثى واهتمام كل واحد منها بأمر صاحبه.

والجواب: أن لفظ المثل لا يقتضي حصول المثلية في كل الأمور فإذا حملنا الآية على ثبوت المثلية ولو في شيء واحد فقد وفينا بمقتضى اللفظ. **ثم اختلف المفسرون في معنى المثلية على وجوه:**

الأول: أنها أمثالكم في كونها أمماً وجماعات، وكأن المراد من هذا أنواعاً مختلفة وأقساماً متباينة في الخلق والخُلق والطبيعة والشكل.

الثاني: المراد أنها أمثالنا في كونها مخلوقة لله تعالى وفي أنه سبحانه يكفل بأرزاقها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

الثالث: أنها أمثالنا في أن مقادير أعمالها معلومة لله تعالى مع أنها خالية عن التكليف وخوف العقاب، فاحذروا أيها البشر المكلفون!! فإنكم بإحصاء الله أعمالكم أولى.

الرابع: أنها أمثالنا في أنها محشورة يوم القيامة والله يقضي لهم بالحق كما يقضي للإنسان. دليله ما روي في الحديث أنه يقتص للجماء من القرناء.

الخامس: لا يبعد حمل الآية على جميع ما ذكرنا من الوجوه لأنه لا مخصص، ولأن على هذا التقدير تكون الفائدة أكثر، وأما التمسك بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فالجواب أنه مخصوص بالأمة الموصوفة بالعقل بالدلائل العقلية وبإجماع الأمة، والله أعلم.

السؤال الثاني: ما الحكمة في خلق الحيوانات المؤذية كالحيات والعقارب

والذئب والأسد.

الجواب: والله أعلم المعتمد عندنا في الجواب أنه تعالى مالك الملك وللمالك أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد إلا أنا نذكر ها هنا وجوهاً أخرى:

فالأول: أنه تعالى رغّب المكلّفين في الطاعات بأن وعد عليها بالثواب ووبّخهم عن المعاصي بأن توعّدهم عليها بالعقاب فلا بد وأن يشاهد في الحال شيئاً يشبه الثواب وشيئاً يشبه العقاب حتى يتكامل رغبتهم في طلب الثواب وتقويهم على الهرب عن العقاب فلا جرم أظهر في الدنيا أنواع اللذات وأنواع المحن والآفات ليكون ذلك كالمعد لأحوال الثواب والعقاب. وقد نبه الله تعالى على ذلك في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي جعلنا النار سبباً للمنافع في الدنيا وجعلناها أيضاً مذكرة للعذاب في الآخرة.

والثاني: أنه تعالى خلق الذئب حتى يفترس الغنم ثم إن الإنسان يبالغ في صون غنمه عن الذئب فإذا بالغ في هذا الحفظ مع أن هذه المضرة قليلة فلأن يبالغ في صون طاعاته عن الشبهات والشهوات مع أن نتائج تلك المضرة عظيمة فكان ذلك أولى.

الثالث: إذا احترز الإنسان عن سمّ الحية والأفعى فلأن يحترز عن سم الكفر والبدعة والفواحش والذنوب مع شدة الآلام الحاصلة منها وطول مدتها كان ذلك أولى، والله اعلم.

الفصل الثاني:
في الاستدلال بأحوال الطيور

على وجود الصانع الحكيم، اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بوقوف الطير في الهواء على وجود الصانع المختار في مواضع من القرآن العظيم. **أحدها**: قال في النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ **ثانيها**: قال في النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. **وثالثها**: قال في الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

أما الآية الأولى فنقول: قرأ عامر وحمزة والكسائي ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره. حجة من قرأها على المخاطبة أن ما قبل هذه الآية مخاطبة وما بعدها مخاطبة فوجب أن تكون هذه الآية أيضاً مخاطبة أما أن قبلها مخاطبة وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وأما ما بعدها مخاطبة فهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وإذا ثبت أن ما قبل هذه الآية وما بعدها على سبيل المخاطبة حتى يكون النسق واحداً في الكل. حجة القراءة الثانية أن الغرض من ذكر هذه الآية الإرشاد إلى الدليل، والإرشاد إلى الدليل إنما يحتاج إليه الجاهل لا العالم، فوجب أن يحمل هذا على لفظ المغايبة صرفاً إلى الكفار والمتكبرين. قلنا: نحن لا ننكر احتمال ما ذكرتم إلا أن ما قلناه أيضاً محتمل لأن الدليل كما يذكر للمنكر حتى يصير مقراً فكذلك قد يذكر للمقر حتى يزداد إيمان على إيمان وغفران على غفران وهذه السورة مشتملة على الدلائل الكثيرة ولا شك أن المقصود منها هو التأكيد بسبب تكثير الدلائل.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ معناه ألم يعلموا.

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية من دلائل المعرفة والتوحيد أمرين:

الأول: كون الطير مسخرة، **والثاني**: أنه ما يمسكهن إلا الله. والمراد من كونها مسخرة أنها في أنفسها أجرام ثقيلة والجرم الثقيل يكون هاوياً بالطبع، إلا أن قدرة الله تعالى غالبة على جميع الطبائع والخواص فهو بقدرته يرفع الثقيل إلى فوق وينزل الخفيف إلى تحت من غير أن يشق عليه ذلك الفعل ومن غير أن يتعب بسببه، والسمٰوات السبع مع ما فيها من البحار والجبال والحيوان والنبات هو تعالى يمسكها بقدرته ويسكنها بحكمته كما قال: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فإذا قدر على إمساك هذه الأجسام العظيمة من غير تعب ولا مشقة فكيف لا يقدر على إمساك أجرام الطيور بقدرته في الهواء أليس أنه تعالى قلع الجبل في وقت موسى عليه السلام وأوقفه في الهواء كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ فها هنا قدرته على إمساك الطير في الهواء أولى. **إذا عرفت هذا فنقول**: كون هذه الأجرام منقادة لقدرته ولهيبته من غير منازعة ولا مدافعة هو المراد بكونها مسخرة في جو الهواء من كونها واقفة بإمساكه ويسكنه فهذا هو الكلام في هذه الآية.

وأما الآية المذكورة في سورة النور: وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فظاهر لفظ قوله: ألم تر خطاب مع الرسول ﷺ فلا جرم اشتملت هذه الآية على فوائد زائدة على ما في الآية الأولى:

أولها: قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفي هذا التسبيح ثلاثة أقوال وذلك لأن التسبيح المذكور ها هنا إما أن يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح، وإما أن يكون المراد حصول هذه الدلالة في حق البعض وحصول هذا النطق في حق الباقين. والقسم الأول أقرب وأما القسم الثاني ففيه إشكال لأن بعض من في الأرض ليسوا مكلفين وهم الأطفال والمجانين وهؤلاء باللسان وأما المكلفون ﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ففيهم من لا يسبح بهذا التفسير وهم الكفار، وأما تفسير التسبيح بكون هذه الأشياء دلالة على السبوحية والعظمة فهذا عام في حق الممكنات وهو المراد أيضاً من قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فإن قيل: التسبيح بهذا المعنى حاصل في كل المحدثات والممكنات فما وجه تخصيصه في هذه الآية بالعقلاء؟ قلنا: لأن خلقه العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه لأن العجائب والغرائب في خلقتهم أكثر وهي العقل والنطق والفهم مع حصول الشهوة وحصول الغضب وحصول الشيطانية.

وثانيها: قوله تعالى ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ فلقائل أن يقول: ما وجه اتصال هذا بما قبله؟ **والجواب**: أنه سبحانه لما ذكر أن أهل السمٰوات والأرض يسبحون [أفاد] أن الأشياء التي مقرها فيما بين السماء والأرض وهي الطيور فهي مسبحة أيضاً لله تعالى وذلك لأن أبدان هذه الطيور أجرام ثقيلة. ثم إنه سبحانه أعطاها قوىً تقوى بها على الوقوف في جو السماء صافّة باسطة أجنحتها وذلك من أعظم الدلائل على كمال قدرة الله ونهاية علمه وحكمته. واعلم أن هذا الوصف قد وصف الله تعالى به الملائكة فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ والملائكة أيضاً وصفوا أنفسهم بهذا الوصف فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ وبالجملة فهذا يشعر بكون الصافين واقفين في موقف الهيبة ومقام العظمة مشتغلين بتسبيح جلال الله وتعظيم كبريائه على وجه الخشوع والخضوع.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ ففيه ثلاثة أوجه.

أحدها: أن يكون المعنى كل من الطير قد علم صلاته وتسبيحه وهذا قول جماعة من أصحاب الأخبار وقال أبو ثابت: كنت جالساً عند أبي جعفر الباقر فقال لي: ما تدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها؟ فقلت: لا، فقال: إنها تقدس ربها وتسأله قوت يومها.

وثانيها: أن يكون معنى الآية كل مسبح قد علم صلاته وتسبيحه. ويدل على صحة هذا التأويل قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وثالثها: أن تكون الهاء راجعة إلى الله. تقدير الآية: كل مسبح ومصل قد علم صلاة الله التي كلفه إياها، فهذا تأويل لفظ الآية والكلام الذي لا بد من البحث عنه في هذا المقام أنه هل يجوز أن تكون الطيور والبهائم عارفة بربها أم لا؟ فأكثر أرباب أهل الآثار والأخبار جوزوا ذلك واحتجوا عليه بأن كون هذه الطيور عارفة بربها مشتغلة بتسبيح ربها أمر جائز في العقول، والنصوص وردت بوقوعها فوجب الاعتراف بذلك. أما الجواز العقلي فيدل عليه وجهان أحدهما: الإجمال والثاني: التفصيل، أما الإجمال فهو أن حصول الفهم والعلم في ذوات هذه الحيوانات من جملة الممكنات والله تعالى قادر على كل الممكنات فإذا لاحت المقدمات وجب القطع بهذا الجواز. أما التفصيل فهو أنا نشاهد من هذه الحيوانات أفعالاً لا تصدر إلّا مِنْ أفاضل العقلاء وذلك يدل على كونها عاقلة ومتى كان الأمر كذلك ثبت جواز كونها عارفة بربها،

ويبين ما ذكرنا وجوه:

الأول: أن الفأرة تدخل ذنبها في قارورة الدهن ثم تلحسه وهذا الفعل لا يصدر عنها إلا لعلمها بقياس مركب من مقدمات وهي أنها محتاجة إلى الدهن إن كان رأسها ضيقاً لا تقدر على إدخال رأسها فيها ويحصل مقصوده بهذا الطريق وهذا يدل على عقلها.

الثاني: أن النحل تبني البيوت المسدسة وهي لم تفعل ذلك إلا لعلمها بأنها محتاجة بأن يبنى بيوتها من أشكال مرصوفة، وهذا يدل على عقلها بصفتين إحداهما: أن لا يكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً، والثاني: أن تكون تلك البيوت مشكلة بشكل متى انضم بعضها إلى بعض امتلأت العرضة منها ولا يبقى شيء منها ضايعاً، ثم إنّها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط وذلك لأن المثلثات والمربعات وإن كان يمكن أن يمتلي الفرجة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال فإن زواياها وإن كانت واسعة إلا أنها لا يمتلئ الفرجة منها بل يبقى فيما بينها فرج خالية ضائعة وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فإقدام النحل على تسديس بيوتها منبئ عن علمها بأنه لا بد وأن تكون موصوفة بهاتين الصفتين وعلى علمها بأن المسدس موصوف بهاتين الصفتين فلا جرم علمت أن البيت الموافق له هو المسدس. ثم إنه تعالى أعطاه من الذكاء ما أقدره به على بناء تلك البيوت مسدسة من غير مسطرة ولا آلة ولا شك أن البشر لا يقدرون على بناء البيت المسدس إلا عند الاستعانة بآلات كثيرة فظهر أن علم النحل بهذه الحقائق وقدرته على بناء هذا البيت أزيد من عقل البشر وعن قدرته.

الثالث: أن النمل يسعى في تحصيل الذخيرة وإن ذلك لعلمها بأنها تحتاج في الأزمنة المستقبلة إلى الغذاء ولا يكون قادرًا على تحصيله في تلك الأوقات فوجب السعي في تحصيله في هذا الوقت الذي حصلت فيه القدرة على الادخار.

الرابع: أن العنكبوت تبني بيوتاً على وجه عجيب وما نسجت الشبكة التي هي يصيد بها إلا بعد أن تفكرت كيف يمكنها اصطياد الذباب، فهذه أفعال فكرية ليست بأقل من الأفعال الفكرية الإنسانية فوجب الإقرار بثبوت العقل لها.

والخامس: أن الجمل والحمار إذا ذهبا طريقاً في ليلة ظلماء ففي المرة الثانية

يقدر على سلوك ذلك الطريق من غير إرشاد مرشد، حتى أن الناس إذا ضلوا في ذلك الطريق المستقيم اقتدوا بهما عند متابعتهما الطريق قدموا الحمار أو الجمل وتبعوا فوجدوا المطلوب وأيضاً أن الإنسان لا يمكنه المشي إلا عند الاستدلال بعلامة مخصوصة وهكذا القطا يطير في الهواء من بلد إلى بلد مشياً سوياً من غير غلط ولا خطأ، وكذلك الكركي ينتقل من طرف من أطراف العالم إلى طرف آخر يطلب الهواء الموافق من غير أن تضلّ ألبتة فهذا فعل يعجز عنه العقل البشري وهي قادرة عليه.

والسادس: أن الدبّ إذا أراد أن يفترس الثور لا يمكنه أن يقصده ظاهراً فيقال أنه يستلقي على قفاه في ممر ذلك الثور فإذا قرب منه الثور وأراد نطحه جعل قرنيه فيما بين ذراعيه ولا يزال ينهش فيما بين ذراعيه حتى يثخنه. وأيضاً أنه يأخذ العصا ويضرب الإنسان حتى يتوهم أنه مات ويتركه وربما عاد يشمّه ويتحسس نفسه وأيضاً يصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضاً بالواحدة وصفها بالأخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويأكل لبّه.

السابع: قيل من خواص الفرس أن كل واحد منها تعرف صوت الفرس الذي قابله، والكلاب يتعالج باللحسة المعروفة لها، والفهد إذا سقي الدواء المعروف بخفانق الفهد طلب وبل الإنسان.

والتماسيح تفتح أفواهها لطائر يقع عليها كالعقعق حتى ينظف ذلك الطائر ما بين أسنانها وعلى رأس ذلك الطير شيء كالشوك فإذا همَّ التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك ففتح فاه فيخرج الطائر. والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعتراً جبلياً ثم تعود وقد شوهد ذلك.

حكى بعض الثقات من المحبين للصيد أنه شاهد الحبارى يقاتل الأفعى وينهزم عنه إلى بقلة يتناول منها ثم يعود فلا يزال ذلك فعله، وذلك الشيخ قاعد في كوخه كما يفعله الصيادون وكانت البقلة قريبة من ذلك الموضع فلما اشتغل الحبارى بالأفعى قلع الرجل البقلة فعادت الحبارى إلى منبتها فأخذت تدور حول منبتها دوراناً كثيراً حتى خرّت ميتة فعلم الرجل أنه كان يعالج بأكلها من لسعة الأفعى وتلك البقلة هي الخس البري. وأما ابن عرس فيستظهر في قتال الحية بأكل الشذّاب فإن النكهة الشدابية يفر عنها الأفعى، والكلاب إذا تدور بطنها أكل من سنبل الحنطة فإذا جرح اللفائف بعضها

داوت تلك الجراحات بالصعتر الجبلي، فانظر من أين حصل لهذه الحيوانات هذا الطب وهذا العلاج.

والثامن: إن القنافذ قد تحس بريح الشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل إلى حجرتها. يروى أنه كان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بإنذاره وكان السبب فيه قنفذاً في داره يفعل الفعل.

والتاسع: أن الخطاف صانع حسن في اتخاذ العش لنفسه من الطين وقلع الخشب فإن أعوزه الطين ابتل وتمرغ ليحمل جناحاه قدراً من الطين وإذا فرخ بالغ في تعهد الفراخ بأخذ ذرقها بمنقاره ويرميه من العش ثم يعلمها إلقاء الذرق نحو طرف العش.

العاشر: إذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه يطعمه لأجل أن يتبعها ثم يذهب إلى جانب آخر سوى جانب فراخها.

الحادي عشر: ناقر الخشب لا يجلس على الأرجل بل يجلس على الشجرة وينقر الموضع الذي يعلم أنه فيه دوداً.

والثاني عشر: العراس فيصعد في الجو جلداً عند الطيران فإن حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها صوتاً خفيفاً مسموعاً يلزم بسبب ذلك الصوت بعضها وإذا نامت على فرد رجل قد اصطنعت الرؤوس إلا القلائل فإنه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه وإذا سمع صوتاً أو أحس بآفة صاح.

والثالث عشر: أن النعامة إذا جمعت لها من بيضها عشرين أو ثلاثين قسمها ثلاثة أثلاث: ثلثاً تدفنه في التراب وثلثاً تتركها في الشمس وثلثاً تحضنه، فإذا خرج فراريخها كسرت ما كان في الشمس وشتت فراريخها ما فيها من تلك الرطوبات التي دفنتها في الشمس ودفعتها فإذا اشتدت فراريخها وقويت أخرجت المدفون منها من الأرض وفتحت لها ثقباً وقد اجتمعت فيها النمل والديدان والذباب والحشرات ثم تطعم فراريخها فإذا تناولت ذلك قويت وقدرت على الرعي واللعب، فقل لي أيها العاقل أي امرأة تهتدي في تربية أولادها إلى مثل هذه الحيلة.

واعلم أن الاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوانات وهذا

القدر يدل على أن هذه الحيوانات قد تأتي بأفعال يعجز عنها أكبر الأذكياء والعقلاء، ولولا كونها عاقلاً ما صح منها شيء من ذلك وإذا ثبت كونها مهتدية عارفة بهذه الدقائق فإنها تعد في كونها عارفة بربها مسبحة لمالكها فثبت مجموع ما ذكرنا أن الإمكان حاصل، **وأما النصوص الدالة على حصول هذه المعرفة فكثيرة.**

الحجة الأولى: قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. وهـــذا التهديد والوعيد لا يحسن إلا مع الفاهم العاقل.

الحجة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن الهدهد :﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وهذا الترتيب في إيراد الكلام لا يتأتى إلاّ من العاقل الذي يكون في غاية الذكاء وذلك لأن أشد الأشياء أخذاً بقلوب الرجال من النساء ولهذا السبب بدأ الله تعالى بذكر النساء في قوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ ولما لم يلتفت سليمان عليه السلام إلى ذكر المرأة ثنّى الهدهد بذكر المال بقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ فلما لم يلتفت سليمان أيضاً ثلّث بذكر الجاه والملك العظيم فقال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ فلما فلم يلتفت سليمان ألبتة إلى شيء من أمور الدنيا ربّع الهدهد بما يتعلق بالدين فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومعلوم أن مثل هذا الترتيب لا يتأتى إلاّ مع الذكاء العظيم.

الحجة الخامسة: ظاهر هذه الآية التي نحن فيها في تفسيرها وهو قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

الحجة السادسة: قوله تعالى في قصة داود عليه السلام: ﴿أَوِّبِى مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ﴾والتكليف لا يتوجه إلاّ على العاقل.

الحجة السابعة: قصة قابيل وهابيل وهي قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى

﴿ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ فثبت بما ذكرنا من التجارب إمكان كونها عارفة بربها وثبت بهذه النصوص كونها عارفة بربها عاقلة فوجب الاعتراف بذلك هذا تمام حجة القائلين بأنها عارفة بربها، واحتج من أنكر كونها عارفة عاقلة بأنها لو كانت عاقلة لكان آثار العقل ظاهرة في حقها لأن إيجاد العقل لها مع أنه لا يظهر أثر في حقها عبث وذلك لا يليق بحكمة الحكيم ولكنا لا نرى آثار العقل حاصلة في حق شيء منها وذلك لأنها لا يحترز عن الأفعال القبيحة ولا يميز بين ما ينفعها وبين ما يضرها فوجب القطع بأنها غير عاقلة.

أجاب الأولون بأن المتكلمين لما استدلوا بدليل الإحكام والإتقان على كونه تعالى عالماً أو ردّوا على تفسيرهم سؤالاً وجواباً وقالوا: نحن نرى في العالم أفعالاً خالية عن إحكام وإتقان فوجب أن يدل ذلك على جهل الفاعل وأجابوا بأن الإحكام والإتقان يدل على علم الفاعل أما عدم الإحكام والإتقان فلا يدل على الجهل لأن الجاهل لا يمكنه الفعل المحكم وأما العالم فيمكنه الفعل الخالي عن الإحكام فلذلك نشاهد صدور الأفعال المحكمة عن هذه الحيوانات ونشاهد أيضاً صدور أفعال غير مجدية عنها فتكون أفعالها المحكمة دالة على عقلها وأما أحوالها التي ليست بمحكمة فلا يدل على عدم عقلها فهذا تمام الكلام في هذا الموضع.

والآية الثالثة في هذا الباب: قوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ فقوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: باسطات أجنحتها في الجو عند طيرانها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: وتضمها إذا ضربت جنوبها. وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: لم قال ويقبضن ولم يقل قابضات حتى يكون مطابقاً لقوله صافات؟ الجواب: لأن الطيران في الهواء يشبه السباحة في الماء والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، أما القبض فطارئ على البسط بالاستظهار به على الحركة والاسم يدل على الثبات والاستقرار والفعل يدل على التجدد فعبّر عن البسط بقوله: صافات ليدل لفظ الاسم على أن هذا هو الأصل، وعبر عن القبض بلفظ الفعل ليدل على أن هذا القبض تبع وعلى أنه يصدر القبض من الطير تارة بعد تارة كما يكون من السابح. نظيره ما يقال فلان رجل مناظر ويشعر فهذا يدل على أن حرفته هي المناظرة ثم أنه قد يشعر في بعض الأوقات فكذا ها هنا. ثم قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها وضعف أدمغتها وقلة اهتدائها إلى الفرق بين المصلحة والمفسدة لا يمكنها البقاء في جو الهواء إلا بإمساك الله تعالى.

والسؤال الثاني: أنه تعالى قال في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ فلا جرم كان إمساكها ها هنا محض الإلٰهية وذكرها هنا أنها صافات قابضات فكان لا يكون إلهامها إلا هذا التصفيف والقبض على الوجه المطابق للمصلحة والمنفعة من كمال رحمته ثم قال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ والمراد بالبصيرة كونه تعالى عالماً بالأشياء الدقيقة، وحاصل الأمر أن إمساكها في جو السماء فعل على خلاف الطبائع وهو موافق للمصلحة فدلّ كونها على خلاف الطبيعة على وجود مدبر قادر قاهر قلب الطبائع وأبطل الخواص، ودلّ كون هذا الفعل محكماً متقناً مطابقاً للمصلحة على كون ذلك المدبر القادر عالماً بجميع المعلومات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرضين والسمٰوات فهذا ما يتعلق بهذا البحث.

روي أن الشبلي رأى طوطيًا في القفص ويقول: سبحان من صورني وفي الهواء طيرني وفي القفص صيرني سيكون ما قضى، سخط العبد أم رضى. فاشتراه الشبلي بثمن كثير وأخرجه من القفص وخلصه وقال: أستحي أن أترك من يسبح الله مسجوناً.

إلٰهنا! إن الشبلي خلّص ذلك الطير لأنه سبّح الله مرة فنحن المساكين نسبحك من أول عمرنا من صميم قلوبنا فخلصنا من أليم عقابك إنّك أرحم الراحمين.

الفصل الثالث:
في البعوض

قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: ذكروا في تفسير نزول الآية [أقوالاً]:

الأول: قال ابن عباس لما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ وطعن في الأصنام ثم شبه عبادتها ببيت العنكبوت. قالت اليهود: أي قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله المثل بهما؟ فنزلت هذه الآية.

والقول الثاني: أن المنافقين طعنوا في ضرب المثل بالنار والظلمات والرعد والبرق في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾.

والقول الثالث: أن هذا الطعن كان من المشركين، قال القفال رحمه الله: والأقوال الثلاثة كلها محتملة ها هنا، أما اليهود فلأنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ وهذا صفة اليهود لأنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وأما الكفار والمنافقون فقد ذكرهم الله تعالى في سورة المدثر:

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ فأما الذين في قلوبهم مرض فهم المنافقون، وأما الذين كفروا فيحتمل أن يكون هم المشركون لأن السورة مكية فثبت أن الكل محتمل.

البحث الثاني: الحياء تغير وانكسار يحصل في مزاج الإنسان من خوف ما يعاتب به ويذم، ألا ترى أنه يقال: هلك فلان حياءً ومات حياءً وذاب حياءً رأيت الهلال في وجهه من شدة الحياء. إذا ثبت هذا كان الحياء من صفات الأجسام والله تعالى ليس بجسم فكان الحياء محالاً في حقه إلا أنه ورد في الأخبار والقرآن. أما في القرآن: ففي هذه الآية وذلك لأن ما لا يجوز ثبوته في حق الله تعالى لا يجوز إطلاقه في حقه أيضاً على طريق النفي إنما الواجب أن يقال أنه تعالى لا يوصف به فأما أن يقال: لا يستحي فغير جائز أنه توهم بقي ما يجوز وما ذكره تعالى في كتابه من قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ و﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فهذا وإن كان في صورة النفي إلا أنه ليس ينفي في الحقيقة وكذا قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وكذا قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وليس كلما ورد في القرآن إطلاقه جاز أن يطلقه الواحد منا ولا يجوز إطلاق هذه الألفاظ إلا مع بيان أن ذلك محال، ولقائل أن يقول هذه الصفات لما كانت منفية عن الله تعالى مع وجوب كونها منتفية كان الإخبار عن انتفائها صدقاً فوجب أن يجوز إطلاق. بقي أن يقال الإخبار عن انتفائها توهم صحتها فنقول هذه الدلالة ممنوعة لفظاً لأن تخصيص هذا النفي بالذكر لا تدل على ثبوت صحته بل لو قرئ باللفظ ما يدل على انتفاء الصحة كان ذلك أحسن من حيث أن يكون مبالغة في البيان وليس إذا كان غيره أحسن لزم أن يكون تركه قبيحاً.

وأما الخبر: مما روى سلمان عن رسول الله ﷺ: **«أن الله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفراً حتى يضع فيهما جزاءً»** وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إن الله حيي كريم يكني القبيح بالحسن وإن مما كنى أن يقال: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه لا يمكن إجراء لفظ الحياء في حق الله تعالى على ظاهره وجب تأويله، **وفيه وجهان:**

الأول: وهو القانون في أمثال هذه الألفاظ أن كل صفة تثبت للعبد مما يختص بالأجسام فإذا وصف الله تعالى به فذلك محمول على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض.

مثاله: أن الحياء يحصل للإنسان بسبب انكسار وتغير في المزاج فهذه الحالة مبدأ وغاية أما المبدأ فهو ذلك التغير المزاجي، وأما الغاية فهو أن يترك الإنسان ذلك الفعل فإذا ورد الحياء في حق الله تعالى فليس المراد منه ذلك الانكسار الذي هو

المبدأ بل المراد منه ترك الفعل الذي هو الغاية، وكذلك الغضب له مقدمة وهو غليان دم القلب وشهوة الانتقام وله غاية وهو إنزال العقاب بالمغضوب عليه فإذا وصفنا الله تعالى بالغضب فليس المراد ذلك الذي هو غليان دم القلب بل المراد تلك النهاية وهو إنزال العقاب فهذا هو القانون الكلي في هذا الباب.

والوجه الثاني: أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فيقولون: أما يستحي رب محمد أن يضرب المثل بالذباب والعنكبوت؟ فجاهد الكلام على سبيل الطباق. والجواب على لفظ السؤال وهذا فن مشهور من الكلام.

البحث الثالث: هو أن شبهة هؤلاء الكفار إما أن يقال أنها وقعت من حيث أنهم استبعدوا من الله ضرب المثل بالذباب والعنكبوت والبعوض وأمثالها. أما الأول فباطل لأن ضرب الأمثال لتعريف المعاني أمر مستحسن في العرف، ولأن أمثال العرف كثيرة مشهورة بالأشياء الحقيرة وأيضاً كتاب كليلة ودمنة أكثره أمثال. وأما في الشرع فلأنه ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء الحقيرة، قال: يشبه ملكوت السماء برجل أخذ حبة الخردل وهي أصغر الحبوب فزرعها في قريته فلما نبتت عظمت وصارت كأعظم شجرة من البقول وجاء طير السماء فعشعش في فروعها، فكذلك الهدى من دعا إليه ضاعف الله له أجره وعظمه وفيه نجاة من اهتدى. وقال أيضاً: لا يكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة، كذلك أنتم تخرج الحكمة من أفواهكم وتبقون الغلّ في صدوركم: وأيضاً قال: قلوبكم كالحصاة التي لا ينضجها النار ولا ينبتها الماء، وقال لا تدخروا ذخائركم حيث السوس والأرضة فتفسدها ولا في البرية حيث السموم فتحرقها السموم وتسرقها اللصوص ولكن ادّخروا ذخائركم عند الله، وقال أيضاً: الأرض مسجد ودار عليها لناسها، وهناك رزقها وهذا مما لا يُعد ولا يحصى ومنه ما هو في جوف الحجر الأمم أو جوف العود من يأتيهن بلباسهن وأرزاقهن إلا الله أفلا تعقلون، وقال: لا تذئروا الزنابير فلتدغنكم كذلك لا تخالطوا السفهاء.

فثبت أن الله تعالى ضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة، وأما أن ضرب الأمثال مستحسن في العقول فلأن من طبع الخيال حب المحاكاة والتشبيه فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل وليس معه منازعة الخيال. ولا شك أن الثاني يكون أجمل وأيضاً فنحن نرى أن الإنسان يذكر معنى ولا يلوح كما يحب فإذا ذكر المثال لاتّضح وصار

مبيناً مكشوفاً وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح كان ذكره مفيداً نافعاً، وأما إن قيل أن موضع الشبهة للقوم هو أنّهم استبعدوا أن يضرب الله بهذه الأشياء الحقيرة فاعلم أن هذا جهل لأنه تعالى هو الذي خلق الكبير والصغير وحكمته في كل ما خلق وبرأ عام، لأنه قد أحكم كل شيء وليس الصغير أسهل عليه من العظيم ولا العظيم أصعب عليه من الصغير وإذا كان الكل بمنزلة واحدة كان ضرب المثل بالكل جائزاً حسناً بل المعتبر ما يليق بالقصة.

فإذا كان اللائق بها ضرب المثل بالبعوض والذباب كان ضرب المثل فيها بالفيل والجمل غير جائز وها هنا المقصود بقبح عبادة الأصنام فكان ضرب المثل فيه بالذباب والعنكبوت أولى، **وتدل عليه وجوه:**

الأول: أنه تعالى خلق عباده ضعفاء فقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فلا جرم ضرب لهم المثل بالأشياء الضعيفة لأن الجنس أقرب إلى الجنس. قال ﷺ: **«أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم»**.

والثاني: فإن الله تعالى لم يستحي[1] من خلقها ورزقها فالأولى أن لا يستحي من ذكرها فضرب المثل وكيف يستحي من ذكر شيء لو اجتمع الخلائق على أن يخلقوا مثله لم يقدروا عليه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟﴾.

الثالث: أن البعوضة تحن إذا جاعت فإذا مصت الدم كثيراً انشقت وماتت فهذا أشبه الإنسان على أنه إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالاً إذا أقبل تم.

واعلم أن المفسرين اختلفوا في لفظ "ما" في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا﴾ قال بعضهم: إنها صلة زائدة كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وقال أبو مسلم: معاذ الله أن يكون في القرآن زيادة ولغو إن الله وصف القرآن بكونه هديًا وثباتًا وكونه لغوًا ينافي ذلك. وفي بعوضة قرائتان إحداهما النصب وعلى هذه القراءة فلفظ ما إبهامية والمعنى مثلاً أي مثل ما كان، وأما القراءة بالرفع ففيه وجهان:

الأول: أنها موصولة صلتها الجملة والتقدير الذي هو بعوضة إلّا أنه حذف

(1) [يستحي] في المخطوط: يستجبي.

المبتدأ كما حذف في قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾.

الثاني: أن تكون استفهامية فإنه لمّا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ كأنه قال: بعوضة فما فوقها حتى لا يضرب المثل به، بل له تعالى أن يتمثل بما هو أقل من البعوضة وهو كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب دينار أو ديناران، أي: يهب ما هو أكبر منه، وأما لفظ البعوض ففي اشتقاقه قولان الأول أن البعوض من البعض وهو القطع بالبضع والعضب يقال: بعضه البعوض ومنه بعض الشيء لأنه قطع والبعوض في أصله صفة على فعول كالفظوع فعيلة.

والقول الثاني: أن اشتقاقه من بعض الشيء سمي به لقلة جرمه وصغره لأن بعض الشيء قليل بالقياس إلى كله. أما قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ ففيه قولان:

الأول: فما هو أعظم منها في الجثة كالذباب والعنكبوت والكلب والحمار وذلك لأن القوم استبعدوا تمثيل الله تعالى بكل هذه.

والقول الثاني: وهو اختيار المحققين أن المراد فما فوقها في الصغر، أي: بما هو أصغر منه. **واحتجوا على هذا القول بوجوه:**

الحجة الأولى: أن المقصود من هذا التمثيل تحقير الأوثان كلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود في هذا الباب أكمل.

الحجة الثانية: أن المقصود من هذا الكلام بيان أن الله تعالى لا يترك التمثيل بالشيء الحقير وإذا كان الأمر كذلك كان المذكور ثابتاً أن يكون أشد حقارة من الأول يقال: إن فلاناً يتحمل الذل في اكتساب الدينار بل في اكتساب ما فوقه من القلة.

الحجة الثالثة: أن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله تعالى، فكان التمثيل أقوى وأكمل في الدلالة على العلم والحكمة من التمثيل بالشيء الكثير.

البحث الرابع: في شرح عجائب حكمة الله في خلقه البعوض وبيانه من وجوه:

الأول: أن أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل ثم الفيل مع كبر جثته وليس له إلا أربعة أرجل وخرطوم وذنب والبعوضة لها هذه الأعضاء مع أربعة أجنحة، ثم إنها

تماثل الفيل في الفم والحلقوم والجوف وأعضاء أخرى لا يدركها أبصار الخلق ولا يحيط بها إلا علم الخالق.

الثاني: أن هذا البعوض مع غاية صغره مسلط على الفيل والأسد.....[1] على البعوض وهذا يدل على أن الاستيلاء على الغير ليس بالقوة وكثرة العدد بل بنصرة الله تعالى وإعانته كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أليس أن نمرود كان أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم سلطاناً وأشدهم[2] صولة ثم إن بعوضة طارت إلى دماغه فدخلت في أنفه حتى وصلت دماغه فكانت تؤذيه ويوقع الدغدغة في دماغه، وكان أكثر الناس محبة له وذو شفقة عليه من يضرب على دماغه مائة صفعة بالشدة والقوة أو أكثر حتى تسكن تلك الدغدغة بل إن كنت لم تشاهد نمرود ولا أحواله فاعتبر نفسك فإنه إذا وقعت بعوضة على رأسك أو وجهك فربما صفعت رأسك ولطمت خدك [تريد][3] أن تصيبها ثم إنها تطير ولا تصيبها منك آفة ألبتة ويبقى ضرب اللطم والصفع على خدك ورأسك.

الثالث: أن الصانع البشري يقدر أن يصور فيلاً من الخشب أو من الحديد ولا يقدر أحد من الصناع أن يصور بعوضة من الخشب ولا من الحديد فعلى هذا تكوين البعوضة أشرف من الفيل من هذا الوجه، وذلك لأن الفيل والبعوضة يشتركان في دلالة أجزاء كل واحد منهما على قدرة الصانع وحكمته ثم إن كل ما حصل في الفيل من وجوه الدلائل حاصل في البعوض وقد حصلت وجوه من الدلائل في البعوض لم يكن حاصلاً في الفيل من هذا الوجه وتأمل أنك إذا اعتبرت الأعضاء الظاهرة فالبعوض أزيد فيها من الفيل وإن اعتبرت الاستيلاء والقدرة فالبعوض مستول على الفيل والفيل لا قدرة له على البعوض، وإن اعتبرت الدلالة على قدرة الله تعالى وحكمته فالبعوض أزيد من الفيل بالوجه الذي ذكرنا ولنعلم أنه لا عبرة بالصور والظواهر وإنما العبرة بإعانة الله تعالى وتأييده.

الرابع: البعوضة وكمال معرفتها بمصالحها أمّا حس البصر فلأن البعوض إذا

---

(1) فراغ في أصل المخطوط.
(2) [وأشدهم] فراغ في المخطوط.
(3) [تريد] غير واضحة في المخطوط.

جلس على عضو من أعضاء الإنسان فإنه لا يزال يدير خرطومه من جانب إلى جانب حتى يجد الموضع المثقب من بدن الإنسان لأن جلد الإنسان فيه مسام كثيرة يخرج منها النفس والعرق فهو برأس خرطومه يطلب تلك الثقبة فإذا وجدها غوّص خرطومه فيها فمن الذي هداه لمقصوده من جذب الدم ومن الذي عرفه أن بدن الإنسان فيه منافذ ومسام وإن إدخال الخرطوم في تلك المنافذ الموجودة أسهل من إحداث منفذ في الجلد وأما حس السمع فلأن البعوض في الليلة الظلماء إذا وقعت على عضو الإنسان فإذا حاول الإنسان تقريب اليد منها ليضربها أحست بحركة اليد وطارت ولو بالغ في إخفاء حركة اليد فإنها لا بدّ وأن تحس بتلك الحركة فمن الذي أعطاه هذه القوة السامعة بهذا الكمال.

ثم هاهنا شيء آخر وهو أنها علمت أن مص الدم من جلد الإنسان جناية عليه وإيذاء له فالبعوضة لعلمها بهذا المعنى بقيت مستعدة للفرار والحذر فانظر إلى أنه ﷻ كيف هداه إلى تحصيل الغذاء الموافق له ثم أودع في خياله أنه لا بدّ من الحذر فكلما فكر العاقل اللبيب علم أن مثل هذا التدبير لا يتأتى إلا من الإله الذي خلق فسوى والحكيم الذي قدر فهدى.

الخامس: تأمل في صغر جثة البعوضة ولا شك أن خرطومه أصغر من خرطوم الفيل بكثير ثم إن ذلك الخرطوم مع غاية صغره مجوّف ولولا ذلك التجويف لما قدر على امتصاص الدم فانظر إلى ذلك الخرطوم مع كونه مجوفاً كيف يكون غاية دقته ثم تأمل أنها مع غاية دقتها كيف قوتها وشدتها، فإنها تغوص ذلك الخرطوم في جلدة الجاموس والفيل على شدته وثخانته ويستخرج الدم منه كما يضرب الرجل إصبعه في الخبيص.

السادس: أنه ﷻ خلق في خرطوم البعوض غصوناً كثيرة كما في خرطوم الفيل فتارة يمدها ويطولها وذلك عندما يغوص الخرطوم في الجلد تارة وتارة يقبضه إلى نفسه وذلك عند الإخراج، فتأمل في كل واحد من تلك الغصون وذلك لأنه على قياس خرطوم الفيل لا بد وأن يكون أصله غليظاً ويكون رأسه مستدقاً ولا بدّ وأن يتدرج من الغلظ إلى الدقة على تناسب مخصوص ولا بد وأن يكون قد اختص كل واحد من تلك الأجزاء بشكل مخصوص وصفة مخصوصة لا يقدر على ذلك التشكيل والتصوير إلا القادر على جميع الممكنات العالم بجميع المعلومات.

السابع: تأمل في جسد البعوض فإنه في غاية الصغر وخرطومه أصغر منه بكثير ورأس خرطومه أصغر من ذلك الخرطوم بكثير. إنه تعالى أودع في رأس خرطومه سماً وفيه فائدتان:

الأولى: إن ذلك السمّ إذا انصب على ذلك الموضع من الجلد أفسد مزاج ذلك الموضع وبسبب فساد مزاجه يحدث فيه نوع من اللين والرخاوة فحينئذ يسهل على البعوضة تغويص خرطومها في ذلك الموضع.

الثانية: إن تلك الحرارة السمية تعين البعوض على هضم ذلك الدم المخصوص. وقال أهل العلم: أن الحكمة في خلق السمّ فيما بين فكّي الحية أنه ليس لها أضراس تقوى بها على مضغ الأغذية فلهذا خلق الله تعالى فيما بين فكيها سماً قوياً حاداً منضجاً قاطعًا فالحية إذا قبضت على جثث الحيوانات وجعلتها بين فكيها أقبل ذلك السم على ذلك الجسم فتهرقها من ساعتها فحينئذ يبلعها وتسمن بها ولو لم يخلق ذلك السم بين فكيها لما تمكنت من الأكل لأنه ليس لها أسنان ماضغة طاحنة وكانت تموت من الجوع.

إذا عرفت هذا فنقول: بنية البعوضة صغيرة وحرارة بدنها قليلة وليس لها شيء من الأسنان فخلق الله تعالى في رأس خرطومها ذلك السم ليعينها على هضم الغذاء.

واعلم أن لسم البعوضة قوة شديدة في الكيفية ولذلك أنه إذا كثر اجتماع البعوض على بدن الإنسان اسود لون البدن وربما أدى إلى الموت. ثم ها هنا حالة أخرى أعجب من كل ما تقدم وهو أن جثة البعوضة في حالة الصغر وخرطومها أصغر منها ورأس الخرطوم أصغر من ذلك الخرطوم والسم الذي في رأس ذلك الخرطوم أصغر لا محالة من رأس ذلك الخرطوم، ثم إن البعوضة إذا وضعت رأس خرطومها على موضع من بدن الإنسان فإنه لا ينصب جميع ما معها من السمّ فإذا غضت موضعاً آخر حصل فيه مثل ذلك الألم فعلمنا أنه لا ينصب من السمّ الذي في رأس خرطوم البعوضة إلا القليل وأما الأكثر فيبقى فتأمل أن ذلك الذي تنصب منه على بدن الإنسان كم [تقل][1] وتصغر فلعله جوهر فرد وجزء لا يتجزئ في علم الله تعالى، ثم إنه سبحانه قد أودع في ذلك الجزء والقليل من الخاصية والقوة ما تزعج الفيل وتقلقه

(1) [تقل] في مكانها فراغ من المخطوط.

وتجعله مضطرباً متجزئاً. ثم إنه تعالى ما أودع تلك القوة الشديدة في سم البعوضة إلا ليعينها على إصلاح غذائها ونظم معيشتها وكل من له عقل سليم وطبع مستقيم يشهد بأن هذا لا يكون إلا من تدبير مدبر عالم بجميع الكليات والجزئيات قادر على جميع الكائنات والممكنات.

الثامن: تأمل في حال البعوضة فإذا وقعت على عضو الإنسان اعتمدت على ما لها من الأيدي والأرجل وغوصت خرطومها في الجلد فإذا أحست لمجيء اليد أخرجت ذلك الخرطوم في ذلك على أسهل الوجوه وطارت قبل وصول اليد إليها، ولو أن الإنسان جعل إبرة أو مسلة في جرم غليظ فإنه لا يمكنه أن يخرجها منه إلا بعد تعب شديد.

التاسع: تأمل أيضاً حالها فإن إذا وجدت الفرصة والمهلة مصّت دماً كثيرًا إلى أن ينشق ويموت وربما مصت إلى حيث يعجز عن الطيران فإذا حاول الإنسان ضرب يده عليها وعجزت عن الطيران بسبب ثقلها فبقيت هناك وتصل اليد إليها وتموت وهذا فيه تنبيه عظيم للإنسان على أحوال دنياه وأُخراه، أما الدنيا فلأن الاستكثار من اللذات والشهوات سبب للوقوع في المحن والآفات. وأما الآخرة فلأن الإنسان إذا كان خفيفاً قليل العلائق فإذا وصل إليه نداء قوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ طار من وكر مكر الدنيا إلى عش الآخرة أما إذا كان ثقيلاً من حب الدنيا عجز عن الطيران فبقي في هاوية الجسمانيات وظلمات الخيالات كما قال في صفتهم: ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾.

العاشر: تأمل في رأس البعوضة ووجهها فإنها مع غاية صغرها قد جعله الله تعالى منقسماً إلى أقسام كثيرة، وأودع في كل من تلك الأقسام خاصة معينة وقوة معينة وذلك لأنه تعالى خلق في رأس البعوضة عينين وأودع فيهما قوة باصرة أكمل ممّا للإنسان ويدل عليه وجهان:

الأول: أنها تبصر في الظلمة الشديدة الموضع الذي منه يمكنها مص الدم.

الثاني: أنها تبصر مسام جلد الإنسان ولذلك فإنها إذا وجد بها غوصت خرطومها فيها والإنسان لا يرى ذلك ألبتة. وأيضاً أنه تعالى خلق في رأسها أذنين وأودع فيها قوة سامعة أقوى مما للإنسان ولذلك فإنها تسمع في الظلمة حفيف اليد مع أن الإنسان ألبتة لا يسمعها.

الثالث: أنه خلق في رأسها قوة الشمّ ولذلك فإنها تحسّ بوقوع الجيفة من المكان البعيد ولولا ذلك لما عرفت ذلك.

الرابع: خلق في رأسها الفم وأودع فيها القوة الذائفة ولذلك فإن البعوض ترغب في بعض الطعوم دون البعض ولولا القوة الذائقة لما كان الأمر كذلك.

الخامس: أنه تعالى أودع في بدنها القوة اللامسة ولذلك فإنها تهرب من الحر الشديد والبرد الشديد.

السادس: أنه تعالى خلق في رأسها قوة الحفظ ولولاها لما ميزت بين ما ينفعها وبين ما يضرها، وخلق أيضاً فيها قوة الفكر ولولاها لما عرفت وجوب الفرار عند مجيء اليد، وخلق فيها قوة الذكر ولولاها لما ميزت بين المعاني النافعة والضارة، فانظر الآن إلى رأس البعوضة كم يكون مقدار ذلك الجرم. ثم إنه سبحانه قسم ذلك الجرم الصغير إلى أجزاء كثيرة وأودع في كل واحد من تلك الأقسام خاصية معينة فهذا عيناه وهذا أنفه وهذا أذناه وهذا دماغه الذي فيه قوة الحفظ وهذا وسط دماغه الذي فيه الفكر وهذا مؤخر دماغه الذي فيه قوة الذكر. ثم لا شك أنه تعالى خلق له منفذ الغذاء ومخرج الفضلة ومتى كان الأمر كذلك فقد خلق له جوفاً وأمعاءً وعروقاً وعظاماً فيخطر ببال العاقل السليم العقل أن يسند هذه التأثيرات العجيبة والتصرفات البديعة إلى الطبيعة مع أنها قوة لا شعور لها بشيء من الأشياء ولا تمييز لها في حال من الأحوال، هذا مما لا يقوله عاقل بل شواهد الفطر وصرائح الأفكار ينادي بأعلى صوتها على أنها إنما حدثت بتدبير من لا يعزب عن علمه وقدرته وحكمته ذرة من الأرضين والسمٰوات له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

يا من يرى مدّ البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نباطه في نحره ... والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول

الفصل الرابع:
في الذباب

قال الله تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 73-74] وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: اعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي أقر بفصاحتها الصديق والزنديق والموافق والمخالف، يحكى على أنه اجتمع أربع من الزنادقة بمكة: ابن المقفع وابن أبي العرجاء وأبو شاكر الريضابي وعبد الملك البصري فقالوا: تعالوا نُعارض القرآن كل واحد منا ربع، وتواعدوا وتقدموا على أن يجتمعوا في السنة المستقبلة فلمّا رجعوا قال ابن المقفع: إني عجزت عن معارضة قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾.

وقال ابن العرجاء عجزت عن معارضة قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وقال عبد الملك البصري: إني عجزت عن معارضة قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ فهؤلاء الزنادقة كانوا فصحاء العالم وقد عجزوا عن معارضة هذه الآيات وذلك لجزالة ألفاظها وقوة معانيها وعذوبة سياقها.

وفي هذه القصة نكتة أخرى عجيبة وذلك لأن الأعداء لما طعنوا في فصاحة القرآن وقالوا: كيف يليق بالله ذكر الذباب والعنكبوت؟ فأجاب الله تعالى عنه بأن حقارة هذه الحيوانات لا يقدح في فصاحة القرآن إذ كان بذكرها التنبيه على الحكم البالغة والمعاني الدقيقة الشريفة ثم أشد الزنادقة عداوة وأكثرهم علماً بوجوه الفصاحة والبلاغة اعترفوا بالعجز عن معارضة هذه الآيات المشتملة على ذكر الذباب، وكان ذلك جارياً مجرى معجزة أخرى لمحمد ﷺ **وفي الآية سؤالان:**

الأول: الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية ليس بمثل فكيف سماه مثلاً الجواب لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلاً.

السؤال الثاني: قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ يفيد أن هذا الكلام المذكور ليس كلام الله تعالى بل هو كلام لبعض المتقدمين وذلك يجر إلى القرآن العظيم أعظم وجوه الطعن. الجواب: لما كان الكلام المذكور في هذه الآية في غاية القوة والبعد عن الشبهة كان ذلك الأمر المعلوم من قبلُ لا جرم كان ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم. أما قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ أي تدبروا حق التدبر لأن نفس السماع لا ينفع إنما النافع هو التدبر والتأمل، ثم إنه تعالى احتج بأمر الذباب على إبطال مذهب عبدة الأوثان. فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ والمعنى: أن هذه الأصنام لو اجتمعت بأسرها وأجمعها لما قدرت على خلق الذبابة مع ضعفها فكيف يليق بالعاقل الاشتغال بالعبادة لمثل هذا الشيء وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ نصب على الحال كأنه قال تعالى: يستحيل أن يخلقوا ذباباً حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم، ثم قال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فالمعنى كأنه سبحانه قال: اترك حديث الخلق والإيجاد واذكر ما هو أسهل منه فإن الذباب إن سلب منها شيئاً لا يقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب.

واعلم أن المقصود من هذا الاستدلال يظهر من وجوه:

الحجة الأولى: أن فعل العاقل لا بدّ أن يشتمل على فائدة، وتعظيم هذه الأصنام لا فائدة منه لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع والاشتغال بالعبث محظور عند أولى العقول.

الحجة الثانية: أن العبادة غاية التعظيم. والإنسان أشرف من الجماد وإقدام الإشراف على غاية التواضع لها محض خلاف العقل.

الحجة الثالثة: إنهم لما عظموا الأوثان غاية التعظيم لم يقدروا على أن يعظموا الخالق تعظيماً أزيد من ذلك فحينئذٍ يلزم حصول التوبة في التعظيم بين مدبر السمٰوات والأرض وبين مدبر تلك الأحجار والجمادات وذلك غاية السفاهة أما قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ففيه أقوال:

الأول: المراد منه الصّنم والذباب فالصّنم كالطالب من حيث لو طلب أن يخلقه أو يستنقذ منه ما سلب منه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب.

الثاني: أن الطالب عابد الوثن والمطلوب نفس الصّنم وهذا أقرب لأن كون الصنم طالباً ليس على سبيل الحقيقة بل على سبيل التقدير أمّا ها هنا فعلى سبيل التحقيق.

الثالث: أن يكون معنى ضعف لا من حيث القوة لكن لظهور قبح هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه. أما قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ فالمعنى: ما عظّموا الله حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة لخالق السمٰوات والأرض في العبودية.

واعلم أن منشأ جميع الشبهات هو القول بالتشبيه فالتشبيه بالذات باطل كما تقول المجسمة، والتشبيه بالصفات باطل كما تقول الكلابيّة، والتشبيه في الأفعال باطل كما تقول المعتزلة.

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله: إنه سبحانه جبّار النعت عزيز الوصف فالأفهام لا تصوره والأحكام لا تقدره والعقول لا تمثله والأزمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده. صمدي الذات سرمدي الصفات.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ فاعلم أنه تعالى ذم [الأصنام][1] بأشياء ثم أثنى على نفسه بأضدادها، **فالأول**: أنه تعالى لما قال في هذه الآية في حق الأصنام: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فوصفها بالضعف ووصف نفسه بالقوة فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

والثاني: قال في حقها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فقال لنفسه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

والثالث: أنه تعالى قال لها: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ وقال لنفسه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

---

(1) [الأصنام] في المخطوط الأصناف.

والرابع: قال في حقها: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ وقال لنفسه: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

والخامس: قال في حقها: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. وقال لنفسه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

والسادس: قال في حقها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وقال لنفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

البحث الثاني: في آثار حكمة الله تعالى في خلق الذباب. اعلم أن أكثر الأحوال المذكورة في البعوض عائد في الذباب ثم أنا نخصه بمزيد وجوه:

الأول: إن في الذباب ثلاثة أنواع من المنافع الدينية:

أحدها: ما يدل على التوحيد من وجهين: الأول من جملة من يسبح الله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فهو يسبح الله بحالته ولا تعصيه بعمله ألبتة، وأما الكافر فهو إن كان يسبح الله بدلائل خلقته ولكنه ينكره بلسانه وتعصيه بأعماله فكان الذباب مع غاية حقارته خيراً من الكافر.

الثاني: إنه تعالى جعل الذباب حجة على بطلان مذهب عبدة الأوثان فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ فمعبوداتكم لا يقدرون على خلق الذباب ولا على ذبّهم عن أنفسهم ولا على استرجاع ما سلبها الذباب عنهم ومن كان في الضعف والعجز هكذا فكيف يستحق أن يعبد.

وثالثها: فهو أن الذباب يدل على النبوة فلأنه صح في الأخبار أنه ما كان يقع البعوض ولا الذباب على جسد رسول الله ﷺ. فإنه كان أعزّ على الله من أن يكون جسده مركباً للبعوض والذباب أو دمه مشربًا لهما فكون[1] هذين الحيوانين مسلطين على كل الخلائق مع كونهما ممنوعين عنه على التعيين من أقوى البينات وأظهر المعجزات.

---

(1) [فكون] في المخطوط فيكون.

ورابعها: فهو أن الذباب يدل على طهارة الصحابة، روي أن المنافقين لما طعنوا في عائشة ونسبوها إلى الفاحشة حصل الغم العظيم في قلب رسول الله ﷺ فدخل عمر ابن الخطاب على رسول الله ﷺ فقال له: «**يا عمر ما قولك في هذه الواقعة**» فقال: يا رسول الله أنا قاطع بكذب المنافقين، فقال ﷺ: «**وما الدليل عليه**» فقال عمر: الدليل عليه أن الله عصمك عن وقوع الذباب عن جلدك فلما تفكرت علمت أن السبب أنها تجلس على النجاسات فتلطخ أرجلها فالله سبحانه عصم جلدك عن ذلك القدر من القاذورات فكيف لا يعصمك عن كل ما يكون متلطخاً بالفواحش والسيئات؟ فاستحسن رسول الله ﷺ ذلك. ثم دخل عثمان فسأله عن هذه الواقعة فقطع بكذب المنافقين فطلبه بالدليل فقال عثمان: الدليل عليه أن الله تعالى ما أوقع ظلك على الأرض ثم تفكرت فعلمت أن السبب فيه أنه لو وقع ظلك على الأرض فربما وضع إنسان قدمه على ذلك الظل فالله سبحانه لم يمكّن أحداً من وضع القدم على ظلك فكيف يمكّن الأجنبي من تلويث عرض زوجتك؟ ثم دخل علي فسأله عن الواقعة فقطع بكذب المنافقين فطالبه بالدليل فقال: الدليل عليه أنا كنا نصلي خلفك فنزعت في أثناء الصلاة رجلك عن نعلك فنزعنا أيضاً أرجلنا عن نعالنا فلما تممت الصلاة قلت لنا: «**لِم نزعتم أرجلكم عن نعالكم**» قلنا: فعلت ذلك فوافقنا فقلت: «**إنما فعلت ذلك لأن جبريل** عليه السلام **أخبرني أن عليه قذراً**» فلما أمرك الله بإخراج ذلك النعلِ عن رجلك بسبب ما التصق به من القذارة فكيف يليق بهذه العناية أن لا يأمرك بإخراجها بتقدير أن يكون ملطخة بشيء من الفواحش؟ فطاب قلب الرسول ﷺ عند سماع هذه الدلائل. ثم أنزل الله تعالى الآيات الدالة على طهارتها وبراءتها عن الفواحش، والمقصود من رواية هذا الخبر أن الذبابة وإن كانت ملطخة ملوثة إلا أنها دلت على براءة عائشة عن كل لوث وهذا يقتضي كون الذبابة أشرف وأعلى وأرفع درجة من أولئك المنافقين، فصارت الذبابة دالة على قدرة الله وحكمته ووحدانيته ودالة على طهارة عائشة فصارت على حقارتها مستجمعة للدلالة على صحة أصول الإسلام.

الوجه الثاني: أنه تعالى أظهر بخلق الذبابة قبائح الكفار لأنه إذا وضعت مضغة من المرقة الحارة تبادرت الذبابة إليها والإنسان يذبّها عن تلك المرقة وتموت فيها، وهذا يشبه طريقة الكفار فإن الأنبياء عليهم السلام يذبّونهم عن نار جهنم، بأقصى ما يقدرون ثم إنهم يلقون أنفسهم في نار جهنم إلا أن عاقبة الذباب أحسن من عاقبة

الكفار لأن الذبابة لما ماتت تخلصت من الآلام والكافر لما مات بقي في العذاب أبد الآباد قال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾.

وأما فضائح الفساق فلأن في الذبابة خساسة عظيمة ولا يميز بين الطيب والخبيث فتارة تقع على السكر وأخرى على القاذورات، فكذا الفاسق قد وضعت له مائدة الجنة وأغدق له جميع النعم الطيبة فهو تارة يقدم على تلك المائدة الطيبة وهي الطاعات والعبادات وأخرى يجلس على مائدة المعاصي والمنكرات وهي من جنس القاذورات والنجاسات، فمن أراد أن يصون نفسه عن خساسة الذباب وجب أن لا يدور حول الخبائث والمنكرات.

الوجه الثالث: أنه تعالى أظهر بخلق الذباب عجز الجبابرة، حكي عن سعيد بن جبير أنه توارى عن الحَجَّاج وكان مع ذلك لا يترك الجماعة فقيل له: إيّاك الخروج من الدار فإن عليك من الحجاج عيوناً، قال: فكيف يخلف عن الجماعة والمؤذن ينادي بحي على الفلاح، ثم خرج فأخذه أعوان الحجاج في طريق المسجد وأبوابه إلى الحجاج فقال: يا ابن جبير ما الحكمة في خلق الذباب؟ وكان يتأذى لكثرة ما كان يذبّ عنه وهو يعاوده، فقال: إنما خلق الله الذباب ليذلّ به الجبابرة وذلك أنه يقع على النجاسات ثم يقع على وجوه الجبابرة فيظهر بذلك ذلّهم حيث عجزوا عن دفع أضعف المخلوقات وأحقرها عن أنفسهم.

الوجه الرابع: قال أهل الحكمة أن في الذباب منفعة عظيمة من ثلاثة أوجه وذلك لأن الذباب لا يظهر إلا في مواضع العفونة والأماكن المستقذرة، ثم إنه سبحانه يخلق من بعض أجزاء تلك العفونات ذات الذباب وجعل بقية تلك العفونات غذاءً لها ثم إنها لكثرة طيرانها تحرك الهواء وتحريك الهواء سبب لإزالة العفونات عن الهواء، من هذه الأوجه الثلاثة فالذباب إذا طارت وجلست على وجه الإنسان وأذنه فذلك في الحقيقة نعم عظيمة في حق الإنسان فلولا وجود طيرانه لاستولت العفونات على الهواء وتأدّى إلى حصول المضار العظيمة فكما أن الصبي يتأذى من الفصد والحجامة والعاقل يعلم أنه من أعظم وجوه الإنعام في حق ذلك الصبي، فكذا وقوع الذبابة على وجه الإنسان وإن تأذى منه الجاهل إلا أن العاقل يعلم أنه من النعم العظيمة في حقه من حيث أنه سبب لإزالة العفونات عن الهواء الذي هو مادة الحياة. **فإن قيل**: خالق العفونات هو الله سبحانه فكان ينبغي أن لا يخلقه حتى لا يحتاج في دفعها إلى خلق

الذباب، **قلنا**: هذا السؤال غير مختص بالذباب فإذا قلنا أنه سبحانه خلق الخبز والماء والفواكه لنلتذ بأكلها فنقول للسائل خالق اللذات هو الله سبحانه فكان ينبغي أن لا يخلقها ابتداءً حتى لا نحتاج إلى الماء والخبز ولما كان هذا رداً على كل القرآن علمنا سقوطه. ثم التحقيق أن الدنيا دار الأسباب فربط الله كل شيء بشيء حتى إنه كما يظهر قدرته بإيجاد الأشياء فكذلك يظهر حكمته بجعل الأشياء أسباباً لسائر الأشياء.

الوجه الخامس: في أمثال العرب: أجرأ من الذباب وأشبه من الذباب، أما شدة جرأته فظاهر لأن الإنسان كلما دفعه عاد إليه وقيل إنما سمي الذباب ذباباً لأنه كلما ذبّ آب. والحكمة في وصفه بالجرأة أنه لما كان المقصود من خلقته إفناء العفونات تارة باغتذائها وتارة بتحرك الهواء بسبب الطيران وجب كونها موصوفة بالجرأة حتى إنها متى ذُبت لا تمنع عن الحركة فتحصل هذا المقصود، وكذا طينتها ولجاجتها من الأمور المعينة على هذا المقصود وأما كون بعضها شبيهاً بالبعض ففيه حكمة عجيبة وذلك لأنا بينا أنه لو حصلت المشابهة بين الأشخاص الإنسانية اختلت مصالح العالم فإنّ على هذا التقدير ما كان يميز زوج هذه المرأة عن غيره وما كان يميز مالك هذا الدار عن غيره في الشكل وذلك يفضي إلى وقوع المفاسد العظيمة في العالم فلأجل رعاية هذه المصالح ميز الله تعالى كل إنسان عن غيره في الشكل والصورة والصوت.

وأما الحيوانات الأهلية فهي غير مكلفة فما كانت مصالحها يختل عند حصول هذه المشابهة في الصورة والخلقة، إلا أن الإنسان ربما ينتفع بفرد معين منها ولم ينتفع بفرد آخر **منها**: مثل إن كان هذا الفرس أشدّ ركضاً وأشد عدواً من سائر الأفراس فلأجل هذا المعنى أظهر الله تعالى المخالفة بين صور الحيوان، إلا أن المخالفة ها هنا أقل من المخالفة التي بين صور الإنسان وأما الحيوانات البرية فإن حاجة الإنسان إليها قليلة وانتفاعه بواحد معين منها دون غيره نادر جداً فلا جرم كانت المخالفة بين باقي الصور والأشكال أقل مخالفة بين صور الحيوانات الأهلية.

وأما هذه الحيوانات الخسيسة التي لا تتعلق حاجة الإنسان بها ألبتة فلم تحصل المخالفة بين صورها ألبتة فصارت المشابهة بحيث لا يمكن تمييز بعضها عن البعض. وهذا الترتيب الذي ذكرناه في تخليق أبدان الحيوانات يدل على أنها بأسرها مخلوقة لمنفعة الإنسان حتى إنها صارت مخلوقة على وفق مصلحة الإنسان، وإذا عرفت هذا فنقول إن امتياز الإنسان عن سائر الحيوانات ليس إلا لكونه عارفاً بالله مشتغلاً بطاعة

الله، فدل هذا على أن كل الحيوان مخلوقة لهذه الحكمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ودلّ أيضاً أن خالق هذه الحيوانات ليس هو الطبيعة ولا العلة ولا الخاصية بل المؤثر فيها هو قدرة الصانع المختار حتى إنه ﷻ حيث تعلقت المصلحة بإظهار المخالفة بين الصور والأشكال أظهرها، وحيث لم تتعلق المصلحة بإظهار هذه المخالفة لم يظهرها فسبحان من لم يخل ذرة من ذرات الأرض والسماء عن دلائل ظاهرة وبراهين باهرة على كمال قدرته وغاية حكمته.

الوجه السادس: في عجائب خلقة الذباب أنا بيّنا أن كثرة طيرانها من الأمور المطلوبة في الحكمة من حيث أن طيرانها سبب لزوال العفونة عن الهواء فنقول أن كثرة طيرانها في العفونات تصير سبباً لوقوع تلك العفونات عن أجنحتها، ومتى اجتمعت تلك العفونات على أجنحتها ثقلت وعجزت عن الطيران فدبّر الخالق الحكيم المدبر الرحيم أن أقدر الذبابة على أن تنظف جناحيها برجليها عن كلّ ما التصق بها من العفونات ثم كما أنها تنظف جناحيها برجليها فكذا في مقدمة بدنها تنظف بهما عينيها وذلك لأن العين لا يكمل الانتفاع بها إلا إذا كانت صافية صقيلة الأجفان، والحيوانات الكبيرة كذلك تنظف سطح الحدقة في كل أوان عن أنواع البخار والغبار فتبقى صافية أبداً، فسبحان من خلق كل شيء على أحسن الوجوه وهدى كل شيء إلى رعاية مصلحته إلى أقصى الوجوه.

الوجه السابع: في عجائب خلقة الذباب قوله ﷺ: **«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فأمقلوه ثم انقلوه فإنّ في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء»**[1]. واعلم أنها خاصية اطلع عليها الرسول ﷺ بنور النبوة والرسالة، وهذا أيضاً من عجائب الخلقة وإن كون أحد الجناحين داء والآخر دواء مخصوص بالذباب ولا يوجد في غيره.

الوجه الثامن: أنه تعالى جعل حالتي الذباب بحسب الصيف والشتاء دليلاً على اختلاف حالتي الإنسان بحسب الموت والبعث، فكما أن الذباب يغيب في الشتاء ثم يظهر في الصيف فكذا الإنسان يغيب في اللحد بالموت ويظهر في القيامة بالبعث، وبالله التوفيق.

---

(1) رواه البخاري (3320 و5782) من حديث أبي هريرة.

الفصل الخامس:
في الكلام في بقية الحيوانات المذكورة في القرآن

أما **العنكبوت** فقال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41] وفي تشبيه عبادة الأصنام ببيت العنكبوت وجوه:

الأول: أن بيت العنكبوت لا يصون عن الحر والبرد فكذا عبادة الأصنام لا يجلب النفع ولا يدفع الضرر.

الثاني: أن بيت العنكبوت ينهدم بأدنى سبب فكذا مذهب عبدة الأصنام يبطل بأدنى حجة.

الثالث: أن الشيء إنما يعرف بضده فلما كان الاشتغال بغير الله تعالى كبيت العنكبوت في الضعف لزم أن يكون الاشتغال بطاعة الله تعالى وبعبوديته أعظم وأقوى من السمٰوات السبع. ثم في الآية لطائف دالة على شرف المؤمن:

الأولى: أنه قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ سمي الأصنام أولياء للكافرين ثم وصف نفسه بكونه ولياً للمؤمنين.

الثانية: أنه تعالى خلق البعوضة والعنكبوت فجعل البعوضة سبباً لهلاك أشد الخلق طغياناً وكفراً وهو نمرود وذلك لأن البعوضة التي أهلكت نمرود قالوا كان لها نصف البدن وأما النصف الثاني فكان مفلوجاً فاسداً. وأما العنكبوت فإنه تعالى جعله سبباً لنجاة محمد ﷺ عن شر الكفار وذلك لأنه ﷺ لما دخل الغار نسج العنكبوت على باب الغار، والحكمة في ذلك أنه تعالى خلق الأشياء الصغيرة الحقيرة ثم جعلها أسباباً للأمور العظيمة ليعلم الخلق أن الأمر بيد الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ومن عجائب أحوال العنكبوت أنه إذا أراد أن يبني بيتاً طلب زاوية يحيط بها ضلعان ثم يبتدئ فيلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يعدو إلى الجانب الآخر فيلتصق بالطرف الآخر من الخيط ثم لا يزال يذهب ويجيء ثانياً وثالثاً على تناسب مخصوص ثم إذا أحكم الخيط كالسدى اشتغل باللحمة ويضيف البعض إلى البعض على مناسبة هندسية ثم يهيء شبكة يقع فيها البق والذباب، ثم يقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد فيها بادر إلى أخذه فإن عجز عن الصيد بهذا الطريق طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه بخيط آخر. وبقي منتكساً في الهواء ينتظر ذبابة فإذا طارت الذبابة رمى نفسه إليها فأخذها وربط خيطه على رجليها وأحكمها. ثم ما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من هذه العجائب ما لا يحصى، أفترى أنه يعلم الصنعة من قبل نفسه أو بتعليم آدمي؟ بل هذا من الإلهامات الربانية والهدايات الرحمانية.

وأما **النمل**، فقال الله تعالى في حقها في سورة النمل في قصة سليمان عليه السلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 18].

قال المفسرون: وادي النمل وادٍ بالسلم كثير النمل فإن قيل: لم عدّى أتوا بـ «على»؟ قلنا لوجهين: **الأول**: أن أبياتهم كانت من فوق فأتى بحرف الاستعلاء. **الثاني**: أنه يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا بلغ آخره، كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند مقطع الوادي. أما قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ فالمعنى أنه تكلمت بتلك وهذا غير مستبعد فإن حصول العلم والنطق لها ممكن في نفسه والله تعالى قادر على كل الممكنات. وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتفت الناس إليه فقال: سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة حاضراً وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أو أنثى؟ فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: كيف عرفت ذلك؟ فقال: من كتاب الله وهو قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كان ذكراً لقال: قال نملة، وذلك لأن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ثم يميز بينهما بعلامة كقولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي.

أما قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل لا جرم خوطبت بما يخاطب به العقلاء فلهذا قالت: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾.

وأما قوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ ففيه وجهان:

الأول: التقدير مساكنكم كي لايحطمنكم، على طريقة لا أرينّك، وفي هذه الآية تنبيه على أمور:

أحدها: أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز وإنما يلزم لمن في الطريق التحرز.

وثانيها: أن النملة قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فتلك النملة كانت أكثر عقلاً من الحشوية الذين يجوّزون المعصية على الأنبياء، ومن الروافض الذين يطعنون في أصحاب محمد ﷺ. فإن النملة ما طعنت في صحابة سليمان عليه السلام وهؤلاء الروافض يطعنون في صحابة محمد ﷺ.

وثالثها: ما رأيت في بعض الكتب أن تلك النملة إنما أمرت رعيّتها بالدخول في مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع في كفران النعم، وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محظورة. يروى أن سليمان قال لملك النمل: لم قلت للنمل ادخلوا مساكنكم أخفت مني عليها ظلماً؟ قال: لا ولكني خشيت أن يفتتنوا بما يرون من محملك ورتبتك فيشغلهم ذلك عن طاعة ربهم.

قال بعض أهل التذكير أن النملة تكلمت في هذه الآية بعشرة أجناس من الكلام: نادت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وعذرت.

أما النداء فـ «يا» وأما التنبيه فقولها: ها، وأما التسمية فقولها: النمل، وأما الأمر فقولها: ادخلوا، وأما النص فقولها: مساكنكم، وأما التحذير: لايحطمنكم، وأما التخصيص فقولها: سليمان، وأما التعميم فقولها: وجنوده، وأما الإشارة فقولها: وهم، وأما العذر فقولها: لا يشعرون، وأيضاً فهذه النملة قامت بأداء خمسة من الحقوق.

الأول: حق الله تعالى، فإنه تعالى جعلها ملكة النمل فاحتاطت في رعاية الرعية.

الثاني: حق سليمان عليه السلام نبّهته على الاحتراز من قتل البريء عن المجرم.

الثالث: حق النمل فإنها نصحت النمل حتى وصلت مساكنها فتخلصت من البلاء.

الرابع: حق جنود سليمان فإنها حذَّرتهم عن الإقدام على إيذاء الحيوانات من غير فائدة.

الخامس: حق جميع الخلق فإنها بهذا الكلام علَّمت جميع الخلائق الاجتهاد في إيصال الإحسان إلى الخلق والمبالغة في كف الأذى عن الخلق وعن الرعية كما قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1] فهذا ما يتعلق بهذه الآية على سبيل الاختصار.

وأما الحكمة في خلقة النمل وعجائب أحوالها فمن وجوه:

الأول: أنه تعالى أشار بخلق النمل في الدنيا إلى كيفية حال المتكبرين في القيامة من الذلّ والحقارة وقال ﷺ: «**يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ يطأهم الناس بأقدامهم**»[2].

الثاني: أن النمل يجمع في الصيف للشتاء وفي وقت الوجدان لوقت الفقدان فينبغي أن يكون العبد كذلك يشتغل بالطاعة في الدنيا ليجد الثواب في العقبى قال ﷺ في خطبة له: «**فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشباب قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار**»[3].

الثالث: إن النمل قد يتكلف نوى التمر ويتحمل العناء والمشقة العظيمة في ذلك ثم إنها لا تنتفع بتلك النواة إلا أن ينظر إليها ولا تنتفع بها قط، فيكون نصيبها من تلك النواة محض المحنة والمشقة فكذا الحريص يتحمل المشقة في جمع الدنيا ثم يموت ولا ينتفع بها ولا يكون له فيها حظ إلا التعب.

---

(1) رواه أحمد (4495، 5167، 5786، 5901) والبخاري (893، 2409، 2554، 2558، 2751، 5188، 5200و 7138) ومسلم (1829) وغيرهم من حديث ابن عمر.

(2) رواه أحمد (2/ 179) والترمذي 2494 والبغوي في شرح السنة (3590) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(3) لم نره فيما لدينا من المراجع.

الرابع: أن النملة تحمل أضعاف قوتها وقدرتها فكذا العبد يجب عليه أن يتحمل أضعاف قوته [من] المشقة في طاعة الله تعالى.

الخامس: من عجائب أحوالها أنها تتخذ تحت الأرض منازل وتملأها الحبوب والذخائر قوتاً للشتاء ثم تجعل بيوتها متعوجاً عن البعض لئلا يجري إليها ماء المطر فربما اتخذت بيتاً فوق بيت لئلا يسيل إليها ماء المطر ثم إنها تقطع الحبة بنصفين خوفاً من أن يصل إليها الماء فتنبت فكذا نفس الشعير والباقلاء والعدس والكزبرة تكسرها أرباعاً خوفاً من أن ينبت وإذا ابتل من تلك الحبوب شيء أخرجته إلى الشمس أيام الصحو ليجف لأجل أن لا ينبت، وإذا أخرجت من جحرها تذهب يمنة يوماً ويوماً آخر يسرة ثم إنها في الذهاب والمجيء كأنها قوافل لا ينحرف عن الطريق ثم إذا ذهبت واحدة منها شيئاً لا تقدر حملها أخذت منها قدراً ورجعت وأخبرت الباقين بذلك، وربما اجتمع على الشيء الواحد منها عدد منها يحملونه ويقلبونه ويذهبون به إلى الجحرة ويتحملون العناء والشدة فيه وإذا علمت بأن واحدة توانت في الحمل وتكاسلت في الإعانة اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها.

قال أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب ﷺ انظر إلى النملة في صغر جسمها ولطافة هيئتها كيف دبّت على أرضها وضنت على رزقها وتنقل الحبة إلى جحرها وبعد في مستقرها تجمع في حرها لبردها وردؤها لصورها[1] مكفول برزقها من رزقة لوقتها لا يحرمها المنان ولا يغفلها الديان وتولى الصفاء اليابس والحجر الطامس.

وأما **الأرضة** فقد قال في سورة سبإ في قصة سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبإ: 14] فقيل أنه عليه السلام قال: (اللّهم أبهم على الجن موتي ليعلم الإنس أنهم لا يعلمون الغيب). ودخل محرابه وقام متكأ على عصاه فمات وبقي سنة قائماً حتى تم بناء بيت المقدس ثم سلط الأرضة على منسأته فخرّ فعرف الجن موته وكانوا يحسبونه حياً لكثرة ما شاء الله من طول قيامه.

قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير منساته بغير همزٍ، وقرأ ابن عامر بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مفتوحة وكلها لغات صحيحة وأصله الهمز لأنه من نسأت الشيء، أي:

---

(1) كذا في المخطوط.

طردته. أما قوله: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. ففيه قولان:

أحدهما: تبينت حال الجن للإنس أن الجن لا يعلمون الغيب.

الثاني: عرف عامة الجن أن رؤساءهم لا يعلمون الغيب. والعذاب المهين هو تكليفهم الأعمال الشاقة في البناء وسواه.

ومن عجائب أحوال هذا الحيوان أمور ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى أعطاها شفرتين تشبه السواطر تقرض بهما الخشب ونوى التمر تثقب الآجر والحجارة، وهذا من العجائب فإن ذلك الحيوان مع صغر جرمه ورخاوة بدنه كيف حصل لمشفريه هذه القوة العظيمة.

الثاني: إذا ثقبت الخشبة من الداخل بنت هناك لنفسها بيتاً من الطين الصرف تشبه الأراج والأدامة. فمن أين وجدت التراب هناك والماء حتى جعلتها طيناً وبنت لنفسها من ذلك الطين بيتاً؟.

الثالث: أن الطير المسمى بناقر الخشب لا ينقر إلا على الموضع الذي يكون تحته هذا الحيوان فتأمل هذا الطير بأي علامة عرف أن تحت ذلك الموضع هذه الأرضة، وكيف تميز ذلك عنده هذا الموضع من الشجرة عن سائر المواضع، ومن أنصف علم أن علوم الخلق لا تصل إلى هذه الأسرار وأقر بجلالة الخالق وكمال قدرته وحكمته.

وأما **الفراش** فقال تعالى في سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ واعلم أنه تعالى وصف يوم القيامة بأمرين:

الأول: كون الناس كالفراش المبثوث. قال الزجّاج: الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار، وسمّي فراشاً لتفرشه وانتشاره، ثم إنه تعالى شبه الخلق وقت البعث في هذه الآية بالفراش وفي الآية الأخرى بالجراد المنتشر.

أما وجه التشبيه فلأن الفراش إذا طار لم يتجه إلى جهة واحدة بل كل منها يذهب إلى غير جهة الآخر وهذا يدل على أن الخلق إذا بعثوا فزعوا واختلفوا في المشي إلى جهات مختلفة غير مضبوطة، والمبثوث المتفرق، يقال: بثه إذا فرقه.

وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة قال الفراء:

الجراد يركب بعضه بعضاً وبالجملة فالله سبحانه شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر وبالفراش المبثوث لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش المبثوث.

ويتأكد ما ذكرناه بقوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وقوله: ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله في قصة يأجوج ومأجوج: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وقيل أن الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار فكيف شبه الواحد بالصغير والكبير؟ قلنا: شبّه بينهما لوصفين متغايرين أما التشبيه بالفراش فلأجل ذهاب كل واحد إلى غير جهة الآخر، وأما الجراد فلأجل الكثرة والتتابع بالفراش، **وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهاً أخرى.**

الأول: ما روي عنه ﷺ أنه قال: «**الناس عالم ومتعلم وسائر الناس همج ورعاع**»[1] فجعلهم الله في الآخرة ذلك اليوم أذلّ من الفراش لأن الفراش لا يعذب وهؤلاء يعذبون فنظيره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

الثاني: أن الفراش كلما منع أن يلقى نفسه في النار فإنه يعود، فكذلك الكفار كانوا يمنعون عن نار جهنم وهم كانوا يلقون بأنفسهم فيها.

الصفة الثانية: من صفات ذلك اليوم قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ والعهن الصوف ذوات الألوان، والنفش هو جعل الصوف ينتفش بعضه عن بعض ويميز بعضه عن بعض.

واعلم أنه تعالى أخبر أن الجبال مختلفة ألوانها وغرابيب سود، ثم إنه سبحانه وتعالى يفرق بين أجزائها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابهاً للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً، وإنما ضمّ تعالى بين حال الناس وبين حال الجبال كأنه تعالى قال: إن تأثير تلك في الجبال هو أنها تصير كالعهن المنفوش فكيف تكون حال الإنسان عند سماعها؟ فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم يتداركه رحمة ربه.

---

(1) لم نره بهذا اللفظ وإنما هناك حديث موضوع بلفظ: (الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما) من حديث ابن مسعود.

ويحتمل أن يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش لأن التكرير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير.

واعلم أن حال هذا الحيوان عجيب فإنه كما يقال أنه يحب النور ويبغض الظلمة جداً فإذا أحسّ بالسراج ظنّ أنه منفذ إلى عالم النور فيلقي نفسه على السراج لطلب أن يتخلص من عالم الظلمة إلى عالم الأنوار. ومنهم من قال أنه يحب شكل النار وصورتها فلفرط حبه للنار جعلت نفسه فداء للنار، وعلى التقديرين فهو إما أن يكون محباً للنار أو للنور، وكيف كان فإنه جعل نفسه فداء لمحبوبه وإذا كان الأمر كذلك فالإنسان أولى بأن يجعل نفسه فداءً لنور معرفة الله تعالى ولنار محبته بل أهل الهند يحرقون أنفسهم على حب الله تعالى. فالمؤمن أولى بأن يحرق قلبه في حب الله.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ثم إن الهنود يحرقون أنفسهم والمؤمن لا يفعل ذلك، **فالجواب من وجوه**:

الأول: أن معبود الكافر لا رحمة له عليهم ومعبود المؤمن رحيم بهم، وكذلك معبود الكافر لا علم له بعبوديته ومعبود المؤمن عليم. فعابد الصنم إذا أحرق نفسه لأجله فالصنم ما علمه ولا رحمه. وأما الحق تعالى فإنه عليم بأحوال عبيده رحيم بهم فلهذا منعهم عن ذلك العمل.

الثاني: إن الكافر يحرق نفسه وهو يرى معبوده بنفسه والمؤمن يعرض نفسه للقتل ولا يرى معبوده فكان هذا أعظم.

الثالث: إن قليل الحقيقة خير من كثير المجاز وفعل المؤمن حقيقة وفعل الكافر مجاز.

الرابع: قال الجُنيد: أهل الهند يحرقون أنفسهم لأجل الصنم فإذا كان يوم القيامة حشروا مع أصنامهم إلى باب جهنم فيقال لهم: أدخلوا النار مع أصنامكم كما دخلتم النار في الدنيا فيأبون، ويقول الله للمؤمنين: ادخلوا النار، فيقولون: سمعنا وأطعنا، ويتسارعون إلى النار فذلك هو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

الفصل السادس:
في حيوانات الماء

والله تعالى خالق كلّ دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء، ذكروا أنه حصل في الربع المعمور أربعة عشر بحراً كباراً منها: بحر الروم وبحر القلزم وبحر الفارس وبحر الهند وبحر الصين وبحر يأجوج ومأجوج وبحر الحبشة وبحر الأرمن وبحر الشرق وبحر الغرب وبحر الشمال وبحر الجنوب وبحر طبرستان، وثمانية أنهار طوال كمثل: جيحون وسيحون والدجلة والفرات ونيل مصر ونهر الكر والرس وهبرمند، طول كل واحد مائة فرسخ إلى ألف فرسخ وقريباً من خمسمائة أنهار صغار، وأما الآجام والغدران والأنهار الصغار فلا يعدّ ولا يحصى فهذا مجموع ما في الربع المعمور.

أما الأرباع الثلاثة من الأرض فإنها مغمورة في البحر. إذا عرفت هذا فتأمل في الحيوانات الموجودة في بحار الربع المسكون وأوديتها وآجامها ثم تأمل فيما حصل من البحر المحيط حتى تعلم أن حيوانات البحر لا نسبة لها في الكثرة.

وعجائب الخلقة عليه غير خافية من أمورها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين.

ذكروا أن ملك حيوانات البحر لشدته وقوته وعظم صولته إذا تحرك تموج البحر من شدة سباحته، براق العينين واسع الفم والجوف كثير الأسنان يبتلع في كل يوم من حيوانات البحر عدداً لا يحصى فإذا امتلأ جوفه وأتخم تقوى والتوى واعتمد على رأسه وذنبه ورفع وسطه خارجاً من الماء مرتفعاً في الهواء مثل قوس قزح، ومقصوده أن تؤثر فيه حرّ الشمس فيستمرئ ما في جوفه وربما عرض له في تلك الحالة ما يشبه الغشي والسكر فيبقى كذلك أياماً، ثم ينعقد السحاب من تحته ثم يرفعه الرياح الشديدة ويرمي به إلى البر فيموت وتأكل من جيفته السباع مدة أو يُرمى إلى يأجوج ومأجوج ما

وراء السّدّ فيصير غذاءً لها، ثم إن هذا الحيوان على عظمته لا يتأذى من شيء إلا من حيوان صغير في البحر يلسعه وهو لا يقدر عليه فيدبّ سمه في جسم هذا الثعبان فيموت ويصير غذاء الحيوانات في البحر وهكذا لكل الحيوانات، وكذلك أن الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها غذءً للعصافير والخطاطيف ثم هذه العصافير والخطاطيف غذءً للبواشق والشاهين، ثم هذه الحيوانات أغذية للنسور والعقاب ثم إنها إذا ماتت أكلها الحيوانات من النمل والذباب والدود وهكذا حال بني آدم أكلتهم في القبور الديدان والحشرات فتارة تأكل صغار الحيوانات كبارها وتارة تأكل كبارها صغارها ليجعل العدل فإن بالعدل قامت السمٰوات والأرض.

ومن **عجائب البحار** الدر وصدفه ويقال أن لها وقتاً معيناً في السنة تصعد من قعر البحر إلى ظاهر سطح الماء في يوم المطر فتضم أذنين لها شبه السفطين ضماً شديداً حتى لا يقع فيه شيء من الماء المالح الذي في البحر ثم تنزل برفق إلى قعر البحر وتلبث هناك منضمة على الصدفين إلى أن ينعقد فيها الدر والله أعلم، وبالله التوفيق.

الفصل السابع:
في أحوال الأنعام

اعلم أنه استدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته بأحوال البهائم، وذكرها في الكتاب كثيرة وأجمعها ما ذكر في سورة النحل فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ اعلم أن هذه الحيوانات مخلوقة لمصلحة المكلفين وكل حيوان كان انتفاع المكلف به أكثر كان أشرف، ومعلوم أن انتفاع المكلفين بالأنعام أكثر من انتفاعهم بغيرها وذلك لأن الأنعام ينتفع بها في الأكل وذلك بأكل لحومها وفي الشرب بشرب ألبانها [وباللباس] وذلك باتخاذ الملابس من أصوافها وأوبارها، وبالركوب وذلك لركوبها وبالحمل وذلك بأن يحمل أمتعتهم في الأسفار، وفي كثرة المال وذلك بسبب درها ونسلها، وفي التجمل بها وذلك لأنها أموال طاهرة فيحصل التجمل بها ولما كان انتفاع الناس بالأنعام أكثر من انتفاعهم بسائر الحيوانات لا جرم كانت الأنعام أشرف أنواع الحيوانات فلهذا السبب قدمها الله تعالى في الذكر على سائر الحيوانات، قال تعالى:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ ثم إنه تعالى فصل القول في بيان منفعتها.

فالمنفعة الأولى: قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ والمراد من الدفء هو اللباس وذلك لأن اللباس سبب الدفء فسمّي اللباس باسم الدفء، وتحقيق الكلام أن الروح الإنسانية أشرف الأرواح السفلية بل هي سلطان الأرواح السفلية والسبب في هذا الشرف العظيم كونها مشرفة بتشريف الإضافة المذكورة في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ولما كانت الروح الإنسانية أشرف الأرواح السفلية وجب أن يكون البدن الإنساني أشرف الأبدان السفلية وأشدها اعتدالاً وأبعدها عن الكثافة والصلابة ولما كان بدنه في غاية الاعتدال لا جرم لم ينبت على جلده الشعور الكثيرة فبقي عارياً عن

الوطاء والدثار الذي هو حاصل لسائر الحيوانات وإذا كان كذلك فلطافة مزاجه تحوجه إلى التصون عن الحر والبرد وكهباب الأهوية ورطوبات الأمطار فهذا هو السبب في احتياج الإنسان إلى الملبوس.

والمنفعة الثانية: قوله تعالى في هذه الآية ﴿وَمَتَٰعًا﴾ اعلم أن ما قبل هذه الكلمة هو ذكر الدفء وما بعدها هو ذكر الأكل ولفظة بالمنافع مبهمة مجملة فلما قدم ذكر الدفء احتمل أن يكون المراد من هذه الآية بالمنافع هو المسكن.

ولما ذكر بعد هذه الكلمة الأكل احتمل أن يكون المراد من هذه المنافع المشروب. أما الاحتمال الأول فنقول: الإنسان كما هو محتاج إلى الملبس فكذلك محتاج إلى المسكن وسبب الاحتياج من وجوه:

الأول: إن كل أحد من الناس قد يقدم على ما يستحيي من اطلاع الغير عليه فلا جرم يحتاج إلى مسكن منفرد.

الثاني: إن الإنسان لا يمكنه الجلوس في الحر الشديد للشمس وفي الهواء البارد جداً ولا يمكنه أن يجلس في الرياح الشديدة والأمطار القوية فلا جرم يحتاج إلى المسكن.

الثالث: إن الإنسان يحتاج إلى ادخار الأموال والمطعومات والملبوسات ولا يمكن حفظها إلا بالدار.

الرابع: إن الإنسان يحتاج أن يحترز عن ضرر الأعداء من الناس والسباع وذلك لا يمكن إلا بالدار، فلأجل هذه الوجوه يحتاج الإنسان إلى التفرد بالمسكن.

واعلم أن المسكن يجري مجرى الثوب في كونه ساتراً للبدن ومانعاً من حصول المؤذيات من الحر والبرد والرياح إليه، ولما ذكر الله تعالى أمر الملبوس قال بعده: ومنافع أي ومنافع من جنس منفعة الملبوس وهي منفعة المسكن. واعلم أنه تعالى شرح أمر هذه المنفعة في هذه السورة في آية أخرى فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: 80] فقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ

﴿بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي: مسكناً تسكنون فيه، وهو إما أن يتخذ من الحجر والمدر وكل ذلك مخلوق لله تعالى ولكنه تعالى جعلها بحيث يمكن للمقيمين اتخاذ الأبنية ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ يعني الخيام والقباب والفساطيط المتخذة من النطاع والجلود للسفر والحضر ثم قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فالأثاث ما يحتاج إليه في البيوت والمتاع ما يتنعم به ويتجمل ثم قال: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى الموت والمعنى أن الانتفاع بالدنيا يكون إلى مدة ولا تدوم فينبغي للعاقل أن يختار الآخرة، والاحتمال الثاني وهو أن يحمل المنافع المذكورة في الآية على المشروب. فاعلم أنه تعالى جعل من ألبانها مشروباً طيباً طاهراً لنا فذكر هذه النعمة في آيات كثيرة قال تعالى في هذه السورة: أعني سورة النحل ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ الآية.

وثانيها: قال في سورة المؤمنين: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

المنفعة الثالثة: من المنافع المطلوبة في الأنعام قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فاعلم أنه تعالى ذكر منفعة الأكل في المرتبة الثالثة وها هنا أبحاث:

البحث الأول: في سبب احتياج الناس إلى أكل اللحم فاعلم أن السبب فيه أن الإنسان مركب من اللحم والعظم ومن شأن الغذاء أن يكون شبيهاً بالمغتذي فلهذا السبب كان أكمل الأغذية للإنسان اللحم.

البحث الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يفيد الحصر، والمعنى: ومنها تأكلون لا من غيرها وظاهر هذه الآية يقتضي حرمة أكل غيرها إلا ما خصه الدليل، فلما قال بعده: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ذكر هذه الحيوانات وخصها بأنها مخلوقة للركوب مع أن الآية المتقدمة دالة على حصر منفعة الأكل في جنس الأنعام، فكان مجموعها دالاً على حرمة لحم الخيل كما يقول أبو حنيفة.

المنفعة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الإراحة رد الماشية بالعشي من مراعيها إلى مباركها، وسرح الماشية إطلاقها وإنما قدم في الذكر مع أنها متأخرة في الوجود لأن وقت الإراحة يكون وقت شبعها وامتلاء أثدائها من اللبن بخلاف وقت التسريح ولا شك أن التجمل في ذلك الوقت أكمل.

المنفعة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ الشق المشقة والتحقيق أن الشق نصف الشيء، والمعنى: لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب بعض قواكم.

واعلم أنه تعالى ذكر هذه المنفعة في آيات كثرة منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾. ومنها قوله تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة غافر [79 ـ 81]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ ومنها في الزخرف [12 ـ 14] ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ والنكتة فيه أن الخيل أقوى من سابقيه وكذا الجمل والفيل، وذلك الانقياد لا يكون إلا بتسخير الله تعالى كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾. وما الغرض منه إلا التنبيه كأنه تعالى يقول: أنا الذي جعلت القوي منقادًا للضعيف، فاعلم أني قادر عليك ومتولٍ عليك فينبغي أن تكون خائفاً مني منقادًا لحكمي وإلا كسرت رقبتك في محل القهر، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

وصلى الله على سيدنا محمَّد وآله وأصحابه والملائكة والنبيين كلَّما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.